التمثيل الرمزي لتاريخ الدولة: دراسة ثقافية في رواية سيرة إبراهيم لسليم الوردي

م. د. عباس عبيد علوي العامري / جامعة كربلاء

Symbolic Representation of State History
A Cultural Study of Salim al-Wardi's Novel "The Biography of Ibrahim"

Dr. Abbas Ubaid al-Amiri

Abstract : This research is a critical study, employing a cultural approach, of a relatively new subject that has not received the serious attention it deserves. Its central question is how the history of the Iraqi state has been represented in fiction. Because Dr. Salim al-Wardi's novel "The Biography of Ibrahim" retells the history of the state with new perspectives and profound insights, we have chosen it as a model for this study, marking the first time it has been examined academically.

The research plan is structured as follows: an introductory section introducing the author and the text, followed by two chapters. The first, titled "The Debate Between Sub-Identities and National Identity: The State Society," examines the nature of the contradictions, within a multicultural society, between long-standing sub-identities and the emerging Iraqi national identity following the formation of the state. As for the second chapter, it came under the title “Power before the State: The Military and the Parties,” in which we dismantled the tendencies of acquisition and domination over state institutions, by both the military through their successive coups, and the parties, embodied in the positions of fictional characters belonging to the two parties: the Iraqi Communist Party and the Arab Socialist Baath Party, and what they caused in terms of spreading sharp polarization tendencies and the culture of militarism in society, which contributed to weakening the fabric of society and undermining the foundations of the Iraqi state..

المستخلص : هذا البحث دراسة نقدية بمنهج ثقافي لموضوع جديد، لم ينل ما يستحقه من اهتمامات جادة. ويتلخص سؤاله المركزي في فهم الكيفية التي تمَّ بها تمثيل تاريخ الدولة العراقية روائياً. ولأنَّ رواية "سيرة

Article history
Received: 9/ 4 /2025
Accepted: 17/ 5 /2025
Published : 30 /6/2025

تواريخ البحث

تاريخ الاستلام: **9 / 4 /2025**

تاريخ القبول: **15 / 5 /2025**

تاريخ النشر : **30/ 6/2025**

الكلمات المفتاحية العربية :
الرواية العراقية. الدولة العراقية. د. سليم الوردي. الهويات الفرعية. الأحزاب العراقية. العسكر. الدراسات الثقافية.

Keywords:
Iraqi novel, Iraqi state, Dr. Salim al-Wardi, sub-identities, Iraqi political parties, military, cultural studies.

© 2023 THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE

http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

Corresponding author:
Dr. Abbas Ubaid al-Amiri

DOI :

https://doi.org/10.61710/46an7g21

إبراهيم" للدكتور سليم الوردي قد أعادت سرد تاريخ الدولة برؤىً جديدة، ووجهات نظر مُعمَّقة، فقد اخترناها أُنموذجاً للدراسة، وهي المرة الأولى التي تُدرَس فيها أكاديمياً.

تَوزَّعتْ خطة البحث على توطئة تعريفية بالمؤلف والنص، أعقبها فصلان: الأول بعنوان "جدل الهويات الفرعية والهوية الوطنية: مجتمع الدولة"، درسنا فيه طبيعة التناقضات، في مجتمع متعدد الثقافات، بين الهويات الفرعية القديمة، والهوية الوطنية العراقية الصاعدة بعد تشكُّل الدولة. أمَّا الفصل الثاني فجاء بعنوان "السلطة قبل الدولة: العسكر والأحزاب"، وقد فَكَّكنا فيه ميول الاستحواذ والهيمنة على مؤسسات الدولة، لدى كُلٍّ مِنَ العسكر عبر انقلاباتهم المتتالية، والأحزاب، متجسدة في مواقف شخصيات روائية تنتمي للحزبين: الشيوعي العراقي، وحزب البعث العربي الاشتراكي، وما تَسَبَّبا به مِنْ إشاعة نزعات الاستقطاب الحادة، وثقافة العسكرة في المجتمع، مما أسهم في أضعاف نسيج المجتمع، وتقويض أُسس الدولة العراقية.

تقديم

ينطوي موضوع هذا البحث على أهمية كبرى غنيَّة عن البرهنة، دفعت بالباحث للاشتباك مع عناوين إشكالية، ومتداخلة إجمالاً: "الدولة، والأمة، والهويات الفرعية، والتعددية الثقافية، والإيديولوجيا، والعسكرة، والاستقطاب". وإذا كنا قد منحنا "الدولة" ميزة الظهور في عنوان البحث فإنَّ ذلك لا يُقلِّل أبداً من قيمة العناوين الأخرى. فضلاً عن أنَّ استكشاف طبيعة الدولة يُعدُّ لازمة أساسية لفهم كيفية عمل المجتمعات، وآليات توزيع وممارسة السلطة، بوصفها مجموعة علاقات، وأشكال تنظيمية مؤسَّسَاتيَّة تمارس هيمنة، وتفرض تشكيل المعايير الاجتماعية، والثقافية، ووضع القوانين، والحفاظ على النظام.

وبرغم توافر نصوص روائية كثيرة، اشتغلت على تسريد حقب، أو حقبة مفصلية من تاريخ الدولة العراقية، لا سيما ضمن تلك التي ظهرت بعد العام 2003، لكننا، ولأسباب كثيرة، فَضَّلنا اختيار نصٍّ مُغاير، فرواية "سيرة إبراهيم" للأستاذ الدكتور سليم الوردي تمثل – بالنظر إلى تاريخ الانتهاء من كتابتها: 1997– إحدى النصوص الروائية المبكرة التي اشتغلت على موضوعة الهويات الفرعية لمكونات المجتمع العراقي. فضلاً عن حرص مؤلفها على تجسيد مراحل صيرورة الدولة العراقية. والرواية، أيضاً، تحتفل بحياة الطبقة الشعبية في أحيائها الهامشية "عكد النصارى، وعكد الكرد، وأم

النومي في حي الكاظمية"، وما تمثله من بعد رمزي دال على التعددية الثقافية في المجتمع العراقي. كما أنَّ حبكتها تشابكت بسلاسة مع الأحداث التاريخية، جاعلة إياها مُحَفِّزاً لنموِّ الحدث المركزي، وتطوير شخصيات خيالية في قلب أحداث تاريخية حقيقية. يُضاف إلى ذلك كله أنَّ هذه الرواية لم يُسبق أنْ دُرِسَتْ من قبل. ومن دون شك، فإنَّ نجاح البحث العلمي الجاد إنَّما يظهر مِنْ خلال قدرته على سبر أغوار جديدة غير مُكتشَفَة.

ليس من قبيل المبالغة أنْ نقول إنَّ رواية "سيرة إبراهيم" هي تمثيل سردي لسيرة الدولة العراقية في أكثر عهودها خطورة وتناقضاً، وتَأرجُحَاً بين صعود وهبوط، وأمل وخيبة، واتجاهات حزبية متطرفة يسارية ويمينية. فهي، أولاً، تغطي مساحة نصف قرن من تاريخ الدولة العراقية، منذ العام 1936 الذي شهد ولادة بطلها الهامشي المسالم، والانعزالي اللامنتمي "إبراهيم"، حتى وفاته مقتولاً ومُقَطَّع الأشلاء ببشاعة متناهية، منتصف ثمانينيات القرن الماضي. وثانياً لأنَّ سليم الوردي كان معنياً بتمثيل جدل العلاقة بين ثقافة جيل ما قبل الدولة، والجيل الذي نشأ في ظل الهوية الوطنية بتكثيف، ورمزية دالَّة، كما ركَّز على تسريد الحقب التاريخية المفصلية لانقلابات العسكر، وصراع الأحزاب، وبيان دور كُلٍّ منهما في إضعاف أُسس التعايش المجتمعي، وتقويض قواعد عمل الكيان المؤسسي للدولة العراقية.

فَرَضَتْ طبيعة النص المدروس الاعتماد على المنهجية النقدية للدراسات الثقافية "cultural studies"، والنقد الثقافي"Cultural criticism"، لتوفير مساحة من الحرية في اختيار مُدخَلات ذات أفضليَّة ضمن حقل اشتغالهما، كثقافة الهويات الفرعية، ونقد أُطُر الهيمنة، وتفكيك الخطابات الإيديولوجية. وكان علينا أنْ نستجيب، مرة ثانية، لمعطيات النصِّ ونحن نصوغ خطة البحث. ولَمَّا كانت "سيرة إبراهيم" ترميزاً لسيرة الدولة العراقية – مثلما نعتقد – فقد وزَّعنا الدراسة على توطئة موجزة للتعريف بالمؤلف والنص، تلاها فصلان، خُصِّصَ الأول منهما: "جدل الهويات الفرعية والهوية الوطنية: مجتمع الدولة" لدراسة طبيعة التناقضات في مجتمع متعدد الثقافات بين الهويات الفرعية القديمة، والهوية الوطنية العراقية الصاعدة بعد ولادة الدولة، وذلك بتوزيع مادة الفصل على مبحثين: الأول "رمزية الحي المغلق" لدراسة دلالات التمركز المكاني للهويات الفرعية، والثاني "رمزية نسق التسمية" لفهم رغبتها بتوكيد إرثها الثقافي عبر نظام التسمية. أمَّا الفصل الثاني: "السلطة قبل الدولة: العسكر والأحزاب" فجاء بمبحثين هو الآخر: أولهما "العسكر: الانقلابات وظاهرة

الاستقطاب"، وثانيهما "الأحزاب: العسكرة والسعي للسيطرة"، وقد فكَّكنا في كليهما ميول الاستحواذ والهيمنة على مؤسَّسَات الدولة، لدى العسكر عبر انقلاباتهم المتتالية، والأحزاب، متجسدة في مواقف شخصيات روائية تنتمي للحزبين: الشيوعي العراقي، وحزب البعث العربي الاشتراكي، وما تسبَّبِا به مِنْ إشاعة نزعات الاستقطاب الحادَّة، وثقافة العسكرة، مما أسهم في أضعاف نسيج المجتمع، وتقويض أُسس الدولة العراقية. تَلَتْ ذلك خاتمة بالنتائج.

ختاماً، أجد نفسي مَديناً للأستاذ إياد محمد علي، والأستاذ باسل محمد عبد الكريم، لتفضلهما بتوفير مؤلفات الدكتور سليم الوردي، فلهما مني وافر الشكر والامتنان. والشكر الجزيل موصول أيضاً للدكتور زيد سليم الوردي، لتزويده الباحث بمَلَفٍّ عن السيرة الذاتية لوالده الراحل.

توطئة تعريفية: المؤلف والنص

1 – تعريف بالمؤلف

الأستاذ الدكتور سليم علي الوردي من مواليد مدينة الكاظمية في محافظة بغداد في العام 1942. أنهى دراسته الإعدادية سنة 1959، ليلتحق ببعثة دراسية إلى بلغاريا، حيث أكمل دراسة الاقتصاد السياسي في العام 1965 بتقدير امتياز. عُيِّن موظفاً في شركة التأمين الوطنية سنة 1968، ثم سافر من جديد إلى بلغاريا في إجازة دراسية سنة 1971 لإكمال الدراسة العليا في حقل تخصصه، فحصل على شهادة الدكتوراه في العام 1974 بدرجة شرف. عاد إلى وظيفته ليصبح مديراً للتخطيط سنة 1979، ثم معاوناً للمدير العام لشؤون التخطيط والتسويق في العام 1987. كما عمل أستاذاً محاضراً للدراسات العليا للسنوات 1976 – 1981 في كلية الإدارة والاقتصاد بجامعة بغداد، فضلاً عن معهد الإدارة في الرصافة، وتوفي في العام 2015 (الوردي ز.، بلا).

أنجز الدكتور سليم الوردي الكثير من المؤلفات، والترجمات، والأبحاث النظرية، والمقالات في ميدان علم الاقتصاد. وله مؤلفات أخرى في موضوعات اجتماعية، وسياسية، وأدبية، منها: "علم الاجتماع بين الموضوعية والوضعية: مناقشة لمنهج الدكتور علي الوردي في دراسة المجتمع العراقي" 1978، و"ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر" 2009، و"الاستبداد النفطي في العراق المعاصر" 2013. أما على الصعيد الأدبي فقد ألَّف سليم الوردي ثلاث روايات: الأولى "غارات الثور المجنح"، انتهى من كتابتها في 6/ 5/ 1991، ولأنها رواية ساخرة ذات مضمون سياسي نقدي، فإن نشرها ما كان ممكناً أيام حكم النظام السابق، ولم تظهر مطبوعة إلا في العام 2011. ومثل حال سالفتها، لم

يُقدَّر للرواية الثانية "سيرة إبراهيم" التي أنهى الوردي تأليفها بتاريخ 17/ 10/ 1997 أن تطبع إلا في العام 2014، أما الرواية الثالثة "بانتظار من يوقظه" فقد طُبعت في العام 2026.

2 – تعريف بالنص

يقدم سليم الوردي في "سيرة إبراهيم"، وهي رواية واقعية تاريخية، سرديَّة لتاريخ الدولة العراقية. ومثلما هو الهدف الكامن خلف أية رواية تاريخية، كان المؤلف راغباً بتسليط الضوء على الحاضر، فهذا النوع الروائي، حتى وإنْ لجأ لتوظيف شخصيات وحقائق من حقب أخرى، يبقى الحاضر مسعاه الأول (مندلاو، 1997، صفحة 104). تدور أحداث رواية "سيرة إبراهيم" في يومين فقط، منتصف ثمانينيات القرن الماضي، يصوران التحقيق في جريمة مقتل الشخصية المركزية إبراهيم، ضمن الفصل الأول، وحلِّ اللغز ومعرفة القاتل في الفصل الأخير. لكن المؤلف يعود في الفصل الثاني خمسين عاماً إلى الوراء، ليروي سيرة إبراهيم منذ لحظة ولادته، جاعلاً الصراعات والانقلابات المفصليَّة في تاريخ العراق الحديث بمثابة خلفية لتنمية الحدث الروائي، ومُوظِّفاً منها ما يدعم مسار القصة المُتخيَّلَة. أي أنَّ الخيال والتاريخ كانا يسيران في خطين متوازيين: الأول سيرة بطل الرواية إبراهيم، والثاني سيرة الدولة العراقية. وإذا كان حجم الرواية لا يتعدى المائتي صفحة من القطع المتوسط إلا بقليل، فطالما تناول الروائيون ما هو أكبر من مداها الزمني بروايات قصيرة، وليس ثمة مَنْ يجادل بأنَّ الزمن الكرونولوجي شيء، والزمن الروائي شيء آخر مختلف (مندلاو، 1997، الصفحات 86 – 87).

فَضَّل سليم الوردي اعتماد راوٍ عليم "كُلِّي العلم" مُفارِق غير مشارك، تُروى الأحداث من وجهة نظره بضمير الغائب "هو". وقد يسَّرَتْ له هذه الرؤية حرية اختيار، وعرض الأحداث التاريخية، والتعمق في فهم ما تفكر، وتشعر به شخصيات متنوعة الأعراق، والأديان، والأعمار، والمشارب الإيديولوجية، وفي الوقت نفسه مَنحَتْ المتلقي فرصة التفاعل مع حبكة الرواية، ومعرفة أدق التفاصيل عن العالم الداخلي للشخصيات. إنَّ تلك الحبكة المُتقَنَة، وزمن الخطاب غير الخاضع للمسار الخَطِّي التقليدي، يوفران متعة جمالية ومعرفية جاذبة للمتلقي. فمنذ الصفحة الأولى ينسج سليم الوردي بداية مليئة بالتشويق والإثارة، نرى فيها جثة لرجل مجهول مقطعة بوحشية انتقامية إلى أشلاء، ومعلقة على كلاليب أمام دكان قصاب، بينما يقف حاكم التحقيق حائراً أمام معلومات متضاربة عن الضحية، فمرة

يُقال إنه مسيحي، ومرة مسلم. كما أنَّ طريقة القتل توحي بوجود جريمة شرف، في حين أنَّ الشهود يؤكدون حسن أخلاق القتيل، وبعده عن أيَّة شبهة. وشيئاً فشيئاً لن يتعرَّف المتلقي على ما يتطَّلع إليه، أي معرفة القاتل، وأسباب الجريمة فحسب، وإنما على قيمة أخرى للرواية، تظهر في وعيها العميق بإشكالية الدولة العراقية، وهو ما يُنَمِّي فهمه النقدي بالكيفية التي يُؤثِّر فيها الماضي بالحاضر.

ومَهمَا يكن مِنْ أمر، فإن الرواية اشتغلت على موضوع شائك، تنازعته سرديات عديدة، ولا يزال محل جدل استقطابي حاد حتى اللحظة. فقد ظهرت الدولة العراقية إلى الوجود في العام 1921، إثر احتلال استعماري بريطاني مباشر. قبلها، ظل العراق خاضعاً لاحتلال عثماني مرير لما يقرب من أربعة قرون، وفوق ربوعه "كانت توجد عدة طوائف وأقليات في عرض البلاد وطولها، لم تَقوَ الصبغة القومية العامة أنْ تسود فيها" (لونكريك، 1985، صفحة 21). هذا يعني أن ولادة الدولة العراقية كانت متعسرة، وأنها سبقت وجود أُمة عراقية. هكذا، تشكَّل شعب الدولة الوليدة من قوميات، وأعراق، وأديان، وطوائف، ولغات متباينة: عرب، وكرد، وتركمان، وأرمن، وآشوريين، ومسلمين من الشيعة والسنة، ويهود، ومسيحيين، وصابئة، وإيزيديين، ومكونات أخرى. ولا شك في أنَّ هذه الجذور المتعددة ستجعل من مهمة بناء الأمة، والدولة أمراً صعباً، ومعقداً (حديد، 2006، صفحة 464).

مع ذلك فقد نشأ مجتمع عراقي بالفعل، ودارتْ عجلة الدولة، وشرعتْ المؤسَّسات تؤدِّي دورها بكفاءة ومهنية، إثر نجاح العراق بنيل الاستقلال في العام 1932. غير أنَّ سليم الوردي، وهو الساعي للنأي بنفسه عن أحكام القيمة تجاه الطوائف، والمكونات، والزعماء السياسيين، والأحزاب كان يتأمل يوم شرع بكتابة "سيرة إبراهيم"، وانتهى من تأليفها في العام 1997 تلك النهاية غير السَارَّة مطلقاً لمشروع الدولة، إذ كان المجتمع العراقي قد انكفأ على نفسه، والدولة اختُزِلَتْ إلى سلطة شمولية قامعة أيام حكم البعث الثاني، والبلاد في حرب طاحنة مع إيران! فما الذي أفضى إلى هذا المصير المر؟ في الواقع، إنَّ هذا السؤال الإشكالي يلخص لنا جوهر الرواية، وهو ما دفع بسليم الوردي ليقيم حواراً بين الحاضر والماضي، مثلما سنعرف تباعاً.

الفصل الأول: جدل الهويات الفرعية والهوية الوطنية: مجتمع الدولة

كان لا بدَّ لرواية تسعى لرصد مراحل صيرورة الدولة من أنْ تصور المجتمع العراقي على حقيقته، بسيئاته وحسناته، بهويَّاته الفرعية "Sub–identity" التي تضم طيفاً واسعاً من أشكال الانتماء لدين، أو

طائفة، أو عرق، أو إقليم، وبالهوية الوطنية "National identity" الجامعة للعراقيين كلهم. وتبقى – في شكلي الهوية – روابط قائمة على معتقدات، وأعراف، وممارسات تربط أفراد الجماعة، أو المجتمع أفقياً، أي بعضهم ببعض، وعمودياً أي بتقاليدهم، وتراثهم التاريخي. فللهوية بعد ثقافي يمثل إطاراً توجيهياً للأفراد، يُؤثِّر في سلوكياتهم، وتفاعلاتهم الاجتماعية، وخياراتهم الحياتية. واستناداً لميكشيللي في تحديده لفئات العناصر الخاصة المُكَوِّنة للهوية، سنخصص المبحث الأول لفهم نظام السكن، بوصفه جزءاً من أجزاء التنظيمات المادية للهوية، ونقف في المبحث الثاني عند النظام المنتج لأسماء الشخصيات، والأسماء تندرج عنده ضمن ما أسماه ب"الحيازات" (ميكشيللي، 1993، صفحة 19).

1 – رمزية الحَيِّ المغلق

مِنْ بين جميع أنحاء مسرح أحداث الرواية المتمثل بمدينة بغداد، يبرز عكد النصارى بأهله المسيحيين، وعكد الكرد بسَكَنَتِه من الأكراد الفيلية، والكاظمية بقاطنيها الشيعة، وهي بمجملها لم تكن مجرد فضاءات طبيعية للعيش، بل مساحات للتميز الهوياتي في صوره الأولى السابقة لمفهوم الانتماء لهوية وطنية جامعة. إنها أحياء "ما قبل الدولة"، أي إنَّ حضورها في الرواية – دون سواها – يمثل رمزاً للجذر الذي لا يزال حَيَّاً من إرث السلطنة العثمانية، أيام كان العراقيون عبارة عن جماعات، تفصل بينهم أكثر من هُوَّة (بطاطو ح.، 1995، صفحة الكتاب الاول/ 36)، والتي سيشكل استمرار حضورها حتى لحظة مقتل إبراهيم المسيحي في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، أي بعد ما يزيد على ستين عاماً من تاريخ تأسيس الدولة الوطنية في العام 1921 دليلاً على وجود أزمة في التماسك الاجتماعي. هذا بالضبط، هو ما دفع بقاضي تحقيق الرصافة "الأستاذ حاتم" حين حضر لمعاينة مسرح الجريمة، وعرف من أحدهم ديانة إبراهيم، أنْ يسأل باستغراب: "ماذا يفعل نصراني في عكد الكرد؟!" (الوردي س.، 2014، صفحة 8).

إنَّ الحيَّ المغلق يوفر أساساً متيناً يضفي على الجماعة القاطنة فيه إحساساً بالأمان، لكنه يخلق حدوداً أيضاً، وتوجُّساً من الآخرين. وبمرور الوقت، سَيُولِّد مزيجاً من التناقضات بين أفراد الجماعة أنفسهم، فتمركزه في قلب بغداد القديمة التي غدت عاصمة الدولة الجديدة سيجعله على تماس مباشر مع فضاءات لم تكن معهودة من قبل، تتيح الظهور لآخر مختلف، كالمؤسسات الرسمية، أو حتى الأماكن

العامة، مثل الشوارع التجارية الكبيرة، أو دور السينما، وسائر ما تفرضه أية عاصمة حديثة. ومن شأن هذا كله أنْ يثير لدى الثقافة الفرعية مخاوف من حَلْحَلةَ بعض روابطها المحلية. في المحصلة، ستبدأ الأفكار الحديثة بالتسرب إلى زوايا ظلت عصية على التغيير، وسيكتسب بعض سكان الأحياء المغلقة تجارب، ووجهات نظر جديدة، لم يعهدها جيل الآباء، جيل ما قبل الدولة. هذا ما يفسر لنا كيف أنَّ الإيديولوجيا الماركسية وجدتْ لنفسها مكاناً في قلب الأحياء الشعبية لمدينة الكاظمية ذات القداسة الدينية، في منتصف القرن الماضي. فبعد كل ما عاينه إبراهيم "المسيحي" من مظاهر الطقوس العاشورائية في أزقتها، من الرايات السود، إلى مواكب العزاء، إلى قدور الطبخ بروائحها الذكية، سيعرف من لسان صديقه الذي استضافه في بيته، وأطلعه على أحياء مدينته ما لم يكن متوقعاً: "طفق عبد الزهرة يحدث ضيفه، باعتزاز، عن محلته (أم النّومِي)[1]، وهمس في أذنه، أنَّ رجال الأمن يطلقون عليها اسم (محلة موسكو) لغلبة العنصر العمالي فيها" (الوردي س.، 2014، صفحة 43). ومما يجدر ذكره، أنَّ سليم الوردي يلجأ هنا إلى تضمين الرواية بمعطيات واقعية حقيقية،، ففي تلك الحقبة كان شارع المُحيط الشهير في الكاظمية يُعرف بشارع موسكو أيضاً (بطاطو ح.، 1999، صفحة 297).

إنَّ "إبراهيم"، وهو الشخصية المركزية في الرواية يُعد مثالاً رمزياً لجدل العلاقة بين الهويات الفرعية والهوية الوطنية، بين الانغماس السلبي في شرنقة حياة اجتماعية رتيبة مُسوَّرة، والرغبة بالتفاعل مع فضاء ثقافي أكثر رحابة. فهو ما أنْ بدأ يرتاد أماكن جديدة، ويحتك مع أناس مختلفين حتى بدأ يقارن، وهو الميَّال للعزلة منذ طفولته بين بهجة الخارج، وسكون الداخل الرتيب، بين نعيمة الممتلئة بالحيوية والجمال، وهي فتاة مسلمة تنتمي لشريحة المهاجرين من الجنوب في خمسينيات القرن الماضي، وبين القُدود المُتَخَشِّبة لفتيات عكد النصارى (الوردي س.، 2014، صفحة 32). وبعد أنْ عايش عن قرب طقوساً دينية شعبية حافلة في الكاظمية راح يستشعر ثقل، وضيق الحي المغلق: "بعد هذا الكرنفال الكبير... ومشاهده المتنوعة والحشود البشرية الضخمة طالعه شارع الرشيد.... وحثَّ الخطى إلى بيته في (عكد النصارى). فَخُيِّل إليه وهو يسير في أزقته الموحشة إنَّه في مقبرة، فقد آوى الناس مبكرين إلى بيوتهم، إذ لا شيء يُشَجِّع على السهر" (الوردي س.، 2014، صفحة 50). ولولا الدائرة الحكومية التي توظَّف فيها إبراهيم، والتي ضَمَّتْ أطيافاً متنوعة من العراقيين، من أعراق وديانات متعددة ما كان له أنْ يتعرَّف على عبد الزهرة، ويشاهد عن قرب طقوس وكرنفالات ثقافة فرعية مجاورة، ظلت مجهولة بالنسبة إليه، برغم أنها لم تكن بعيدة عنه مكانياً. حتى تَعَرُّفه على نعيمة التي

قرر أنْ يتزوجها، كان ثمرة من ثمار مجتمع الوظيفة الرسمية، فقد كان مدير الدائرة يكلفه بشراء وإيصال بعض الاحتياجات المنزلية إلى بيته، وكانت نعيمه تعمل خادمة فيه. وهكذا تأخذ العلاقات مع أُناس من خلفيات متنوعة بالنموِّ، والتشعب، لكن، دائماً، خارج أسوار الحَيِّ المغلق.

بإشهار إبراهيم لإسلامه للزواج من نعيمة يكون قد عبر السياج الهوياتي للحيِّ المغلق، ويكون، أيضاً، قد فتح على نفسه باباً للمشاكل يصعب إغلاقه: "بلغ النبأ عكد النصارى، ووقع كالصاعقة على عائلة إبراهيم... فجاء رد الفعل سريعاً، قرار طرده من البيت، ونبذه والتبرؤ منه.... وجَّهَتْ زوجة العم إيليا أقذع أنواع الشتائم لإبراهيم، وشاركها في ذلك أولادها وبناتها وكَنَّتها... عندها أبلغه العم إيليا بقرار طرده من البيت، والبراءة منه، ولم يعد له مكان في عكد النصارى" (الوردي س.، 2014، الصفحات 58 –59).

في الواقع، ليس لنا أنْ نستغرب هنا، فَردَّة الفعل هذه تبدو متوقعة، وطبيعية، يمكن لها أنْ تصدر من المنتمين لأيَّة هوية فرعية يغادرها أحد أبنائها، أيَّاً كان السبب، لاسيما حين نتحدث عن الانتماء الروحي، فالدين "أكبر مِن أنْ يكون مجرد اعتقاد، إنَّه المُعبِّر عن وعي الجماعة بذاتها، وعن علاقتها بالعالم" (يفوت، 1981، الصفحات 76 – 77). إنَّ ثقافة الحيِّ المغلق تُحدِّد للشخصيات طريقة تفكير واحدة، وتفرض عليها خيارات محسومة سلفاً. وهي، فوق ذلك، لا تجد نفسها ملزمة باحترام احتياجات الفرد، أو أخذ أسئلته على مَحْمَل الجدِّ، مهما كانت واقعية وجوهرية: "ماذا يعني أنْ تكون مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً، ...؟ أليس الرب واحد[2] ؟ لو أنني ولِدت في عائلة مسلمة، لكنت اليوم مسلماً، ... ولو ولِدت في الصين لكنت بوذياً ... مَنْ ذا سألني أيَّ دين أختار؟" (الوردي س.، 2014، صفحة 51).

من المفيد في هذا السياق أنْ نتذكر تمييز تيري إيغلتُن بين الثقافة بوصفها طريقة حياة قوامها العادات، وبين الثقافة بوصفها صيرورة لازمة التطور لها صلة وثقى بمفاهيم من قبيل العدالة الاجتماعية، والمساواة (إيغلتن، 2018، صفحة 36). إذ ثمة عائلة من هوية فرعية أخرى انتابتها المخاوف مِن أنْ يقوم ابنها بالعبث بمواضعات العرف المناطقي، بإدخال آخرين مختلفين لمساحتها الخاصة. فحين بدأ عبد الزهرة يَتودَّد لنعيمة، ليقترن بها، بعد فشل زواجها بإبراهيم وجَّهَ لها وأسرتها دعوة لزيارة بيته في الكاظمية. ومع أنَّ عبد الزهرة لن يكون مضطراً لتغيير ديانته، فأسرته وأسرة نعيمة مسلمتان، وتشتركان أيضاً في الانتماء للمذهب الشيعي، لكن ستبقى لدى والدته أسباب تعمق الفصل المكاني

التمييزي، وتُحَفِّز مشاعر عدم الارتياح، والازدراء لنعيمة وأسرتها، وهي إذ لم تجرؤ على القول أمام ابنها سوى: "إنهم ليسوا من قماشتنا!" (الوردي س.، 2014، صفحة 123)، ستصفهم أمام ابنتها سنية ب"المعدان...الشراكوة!!" مفصحة عن مفاعيل صورة نمطية "stereotype" للمهاجر الجنوبي، أيام خمسينيات القرن الماضي (الوردي س.، 2014، صفحة 123). وفي ظل أعراف الثقافة التقليدية المحافظة لجيل الآباء، جيل ما قبل رسوخ الهوية الوطنية، يسهل فهم دوافع التنميط المتقدم الميَّال للحفاظ على مركزية المدينيِّ وهامشية الريفي، والساكن الأصيل بقبالة المهاجر الوافد.

لكن للهوية الوطنية منطقها. وهي في أثناء صيرورتها التصاعدية ستبدأ بإذابة الجمود القديم بين المكونات تدريجياً. وفقاً لذلك، فإنَّ ما لم تُرحِّب به الأم في المثال المتقدم، سينظر إليه أبناؤها على نحو مغاير. إذ لم تعد الهوية الفرعية تشكل لديهم أولوية على الأفكار الجديدة: "كانت نعيمة تشارك في الموكب الضخم لرابطة الدفاع عن حقوق المرأة إلى جانب سنية، الأخت الصغرى لعبد الزهرة، الذي عرَّفَ إحداهما على الأخرى، فتآلفتا، وانعقدتْ عرى الصداقة والمودة بينهما" (الوردي س.، 2014، صفحة 123). لقد صارت بحوزة عبد الزهرة وأخته سنية مجموعة واسعة من الأدلة التي تدعم آراءهما لقبول نعيمة زوجة لعبد الزهرة؛ وصديقة مقربة لشقيقته. إنَّ هذين الأخوين يشكلان نواة الطبقة الوسطى الصاعدة، والحائزة تعليماً حديثاً في مدارس بنتها الدولة في العهد الملكي، وحين تشَرَّبا أفكار المواطنة العراقية، والمساواة في الحقوق، وقد أخذتْ تتعزز خلال الأيام الأولى لانقلاب/ ثورة تموز 1958، اعترفا بأريحية بنعيمة، وبحقوقها أيضاً، ولم ينظرا إليها إلا بما تمثله هي ذاتها، أي بوصفها فتاة عراقية تمتاز بالذكاء والطيبة والجمال، لا بقبليات تصنيفية طبقية، أو مناطقية مُتَوارَثة، لم تكن لها يد في صنعها، أو اختيارها.

بالتوازي، تماماً، فشل الجيل القديم مرة أخرى، ممثلاً بوالد نعيمة في اجبار ابنته على الزواج بابن عمها مثلما تقتضي الأعراف التقليدية لثقافة أسرته الريفية المهاجرة: ومرة ثانية ستنتفض الهوية الفرعية، ويتكرر قرار الطرد والمقاطعة الذي قوبل به إبراهيم، كما مر بنا آنفاً: "رضخ أبو نعيمة... متحدياً ضغوط أخوته وأبناء عشيرته. فناوؤه، وأعلنوا الحرب عليه" (الوردي س.، 2014، الصفحات 26 – 27). بهذا، فالهوية الفرعية، حتى تضمن استمرار تقاليد الجماعة، تسعى لإجبار المنتمي إليها على أن يُولد، ويعيش، ويتزوج، ويُنجب، ويموت في فضائها الثقافي، وحيزها الجغرافي. إنَّ نعيمة، بالرغم من كونها "فتاة ذكية بالفطرة، ويتجلى ذكاءها [3] الاجتماعي بإدراكها للعبة المصالح بين بني

البشر" (الوردي س.، 2014، صفحة 116) ما كانت قادرة على التمَسُّك بحلمها بالزواج من رجل مديني لولا انتقالها من صرائف خلف السدة، وهو بدوره صورة لمكان مغلق آخر، لم يتوقف عنده المؤلف كثيراً إلا بإشارة سريعة إلى بؤسه، ومعاناة ساكنيه من نكبة فيضان العام 1954. لقد كان عملها في بيت مدير الدائرة الأستاذ أدهم، بمثابة النافذة التي ستشرع لذهنها صورة لعالم جديد، عالم بغداد، المدينة/ عاصمة الدولة، حيث تتجاور الأعراق، والديانات، مما يجعل المرء أقلَّ سلبية تجاه الآخر، وأكثر استعداداً للانفتاح. بعبارة أخرى، كانت نعيمة تتشرب على نحو تدريجي بقيم ثقافة أخرى، فالثقافة من منظور علماء الاجتماع هي "جوانب الحياة التي يكتسبها الإنسان بالتَعلُّم لا بالوراثة" (غِدِنزْ، 2005، صفحة 82). هذا، بالضبط، ما أمَّن لها قدراً كبيراً من الحرية، لم يكن متاحاً في بيئتها الهامشية الأولى، بيئة تلغي خياراتها، وتُملي عليها إرادات تعسُّفية، فكان أنْ بذلت قصارى جهدها للتمرد، حتى أنها هدَّدتْ والدها بالانتحار إنْ أرغمها على الزواج بواحد من أبناء عمومتها.

إنَّ تأثيث العمل الروائي ببيئات تاريخية ذات وجود واقعي يستدعي استيحاء تفاصيل حقيقية معبرة، تضع المتلقي في عمق الإيقاع اليومي لحقب ماضية، عبر وصف جزئيات مثل نمط العمارة، والأزياء التقليدية، والأطعمة. ويبدو أنَّ سليم الوردي كان منتبهاً إلى أهمية استعادة روح الماضي، يظهر ذلك، مثلاً، في إشارته لأول قمر صناعي أطلقه السوفيات إلى الفضاء، وتوظيفه للبرامج الدينية التي كانت تبثها إذاعة بغداد، ودمجه للأغاني الشعبية الشائعة، وقتها، في سياق الأحداث (الوردي س.، 2014، صفحة 32، 51، 82، 95، 109، 120) غير أنَّ الوقفة المتأنية تكشف عن أنَّه لم يتعمق كثيراً في وصف المكان، بل كان مدفوعاً لإخراجه من حَيِّز المادية الوظيفية إلى حقل الرمزية. باستثناء وقفته التفصيلية وهو يتابع وصف مشاهد المواكب الدينية في الكاظمية "مسقط رأسه" (الوردي س.، 2014، الصفحات 41 – 50)، فعكد الكرد، مثلاً، لم يتأسَّس حضوره إلا عبر الإشارة لحضور شخصيات قليلة، كان أبرزها العم قلي، وزوجته صفية، اللذان احتضنا إبراهيم بعد طرده من عكد النصارى، ووفرا له المأوى، وجعلاه بمثابة ابن لهما. وفي ذلك الصنيع إشارة إلى أنَّ الحيِّ المغلق لا ينفي بشكل مطلق إمكانية حضور التسامح، أو يستبطن على نحو آلي رغبات للنيل من هويات أخرى.

نعم. كان جيل الآباء في العهد الذي تصوره الرواية يحتفظون بأعراف الحيِّ المغلق بوصفها جزءاً لا يتجزأ من تقاليد تَرَبُّوا عليها على مرّ السنين. أمَّا الجيل الثاني فلم يحاولوا ربط أنفسهم بالهوية الفرعية، وما عادت أحياؤهم قادرة على التأثير في خياراتهم. لقد أصبحوا أكثر اهتماماً بعلاقاتهم

بالحاضر، إلى الحد الذي لم تصور فيه الرواية حنينهم لذكريات مفقودة، بل لقد بدا من خلال الأمثلة المتقدمة وكأنهم طووا التناقضات القومية، والدينية، والطبقية التي خلَّفها لهم الآباء إلى الأبد، فأصبحوا جميعاً عراقيين خالصين، قبل أي حد تصنيفي آخر.

2 – رمزية نسق التسمية

تُشكّل أسماء الشخصيات في رواية "سيرة إبراهيم" عتبة رمزية ثانية لتأكيد رسوخ الهويات الفرعية في المجتمع العراقي. فغالبية الشخصيات المولودة قبل منتصف ثلاثينيات القرن الماضي قد ولدوا وهم يحملون مَيسَماً، وشارة انتماء مفروضة. بمعنى أنَّ أسماءهم تستبطن رغبة الهوية الفرعية بأنْ يتبنى أبناؤها الجُدُد ثقافة الجماعة، وعاداتها، وقيمها، وأنْ لا ينفصلوا عنها حين يكبرون. إذ سيبقى الاسم رابطاً يشدهم مدى الحياة بتراث مشترك، وتقاليد، وذاكرة خاصة، ومِن المُسلَّم به أنَّ للهوية ارتباطاً وثيقاً بالذاكرة (ورنوك، 2007، صفحة 17). وهي بذلك الصنيع إنَّما تسعى لتُعرِّف ذاتها، وتُؤكِّد وجودها المتمايز ضمن هويات فرعية أخرى.

إنَّ فعل التسمية يبدو، هنا، رهناً بقوى اجتماعية لا تزال واقعة إلى حَدٍّ كبير تحت تأثير العزلة، وإنَّ استعدادها للتكيُّف مع المتغيرات، والاندماج بهوية ثقافية وطنية جامعة لم يكن في السنين الأولى من عمر الدولة بالقدر الكافي من الحماس، والإرادة الصميميَّة. ووفقاً لذلك، فإنَّ أغلب أسماء الشخصيات ذات الحضور في رواية "سيرة إبراهيم" تحمل بين طياتها رؤى عن خلفية الهوية الفرعية للشخصية، إمَّا على أساس ديني، كما في مثال سكان عكد النصارى، أو الشخصيات المسيحية عموماً، وأغلبهم يحملون أسماء تحيل على أنبياء، وقِدِيِّسين مسيحيين مثل إلياس والد إبراهيم، وجورج عمه، وإيليا جارهم، والست ماري مسؤولة الطباعة في الدائرة التي يعمل فيها إبراهيم، واسمها يشير إلى الصيغة الإنكليزية للسيدة مريم العذراء. أو ديني من مذهب بذاته، كعبد الزهرة المُتَحدِّر من أُسرة شيعية تقطن مدينة مقدسة، حيث تحظى السيدة فاطمة الزهراء، باحترام تبجيلي كبير. أو وفقاً لأساس عِرْقِي أيضاً، مثل أسماء الشخصيات الكرديَّة: العم قلي، وسيروان الصديق الأقرب لإبراهيم، وخسرو المُتعصِّب لانتمائه الكردي، والذي سيكون أحد أسباب مقتل إبراهيم.

إذن، ومثلما كانت صورة المكان، فإنَّ الرواية تنبي أنَّ الاسم أبعد من محض علامة مسطحة، وهي بذلك تنشئ نسخة عن مجتمع الدولة، نفهم عبرها مقدار المصاعب التي توَجَّب بذلها لخلق قواسم

مشتركة، تعزز تماسك مكوِّنات المجتمع العراقي. وفضلاً عن ما تقدَّم، يوضح لنا التعمق في فهم دلالة أسماء شخصيات أُخرى أنَّ نسق التسمية يمتد ليشمل شكلاً آخر للانتماء، له طابع تمايزي إيديولوجي. فالشخصيات القومية يحملون من الأسماء ما يوحي بامتداد الأصول التراثية العربية: "نزار، سرمد، رشيد، أمين"، فنزار يحيل على أحد أشهر أجداد العرب، ورشيد، وأمين لقبان لاثنين من أشهر الخلفاء العباسيين. وجميع هؤلاء موظفون في الدائرة التي يعمل فيها إبراهيم.

لكن، ما دام الاسم علامة انتماء مُتأصِّلة ضمن ثقافة الفئات الاجتماعية، ويمكن عبره تمييز انتماء الفرد دينياً، أو عِرْقِيًّا، أو إيديولوجياً فلماذا خرجتْ الشخصية المركزية في الرواية عن هذا السياق؟ فاسم إبراهيم لا يمكن أنْ يحيل على مُكوِّن ما دون آخر، وهو مشترك، وشائع بين شتى أتباع الهويات الفرعية من عرب، وكرد، ويهود، ومسيحيين، ومسلمين شيعة، وسنة.

لتقديم جواب وافٍ ينبغي تَأمُّل ما تقوله الرواية على نحو صريح من جهة، وما تُلوِّح به من بعيد من جهة ثانية، أي في سياق تمثيلها الرمزي لتاريخ الدولة. بطبيعة الحال إنَّ إبراهيم شأنه شأن سواه من الناس لم يختر اسمه. كان والده إلياس هو المسؤول عن اختياره، وقد حدث ذلك بعد تأمُّل منه، فقد ولد ابراهيم في اللحظة ذاتها التي دخلتْ فيها إلى بغداد قوَّات الفريق بكر صدقي قائد أول انقلاب عسكري في العراق: "كان إلياس في خضم هذه الأحداث المثيرة منشغلاً في اختيار اسم مناسب لمولوده الجديد. اقترح الأهل أسماء مختلفة، ولكن رأي إلياس استقر بعد لأي على إبراهيم، لأنه اسم (حيادي) لا ينم عن انتماء ديني محدد" (الوردي س.، 2014، الصفحات 18 – 19). لا شك في أنَّ هناك مخاوف حقيقية هي التي دفعت بإلياس لاختيار اسم محايد، لا ينم عن الانتماء المسيحي لإبراهيم وأسرته، فقبل ثلاث سنوات فقط من ولادة إبراهيم، كان الفريق بكر صدقي هو المسؤول عن العنف المُفرط الموجَّه ضد المسيحيين الآشوريين في أحداث سميل في العام1933 (الخطاب، 1979، الصفحات 156 – 159).

لكن هل الحياد خيار متاح، وموقف يمكن تَبَنِّيه بأريحية؟ في الواقع، ما كان سليم الوردي ليضع كلمة (حيادي) بين مزدوجين في النص المتقدم لولا فهمه لإشكاليات الأمة والدولة في العراق. مع ذلك، فقد كان لإبراهيم نصيب من اسمه، وانتقاله من المسيحية إلى الإسلام لا يتضمن موقفاً سلبياً تجاه ديانته الأولى، فهو قد دُفع إلى ذلك دفعاً بتخطيط من نعيمة، بدليل أنَّه بعد يوم واحد من دخوله إلى الإسلام غادره خوفاً من إجراء الختان، هو، الكاره لرؤية الدم، والمسكون بهاجس الموت مقطعاً بالسكاكين،

وسنعرف سبب ذلك في الفصل القادم. وبرغم أنَّه لم يعد مَسيحيًّا، ولا مُسْلِماً، لكنَّه ظل يحترم الديانتين، ويزور في الشدائد مراقد أئمة المسلمين، طالباً من الإمام علي، والإمام الحسين، و"أبي الجوادين" الشفاعة له، وفي الوقت ذاته يزور الكنائس، ملتمساً من السيدة مريم العذراء، والسيد المسيح الوقوف إلى جانبه (الوردي س.، 2014، صفحة 187، 190). وقبلها، كان إبراهيم يُحَدِّث نفسه – ولو على سبيل التَّمَنِّي– عن فضاء روحي أكثر رحابة، وعن انتماء لا يقف عند النهايات الحرفيَّة الحادَّة لأيَّة ديانة، أو معتقد: "ألا يمكن أنْ نندمج معاً، في دين خاص بنا، يضم عيسى ومحمداً والحسين وأبا الجوادين وجان دارك" (الوردي س.، 2014، صفحة 52).

إنَّ شخصية إبراهيم النقيَّة، لكن السلبية، لأسباب سنعرفها لاحقاً، والمسالمة وسط إرث ثقافي يحتفي بالقوة هي رمز لما نتج عن الظروف المعقدة لنشأة المجتمع، مثل الظروف العسيرة لولادة الدولة العراقية. بعبارة أخرى، لقد ولد إبراهيم في الزمان الخطأ "لحظة انقلاب عسكري"، والمكان الخطأ "حي مغلق"، وكلاهما لا يسمحان للمرء بتغيير ديانته، أو حتى بتجاوز شعيرة دينية ما. لم تكن لديه أحلام كبيرة. أراد، فقط، أن يتزوج، ويحيا حياة عادية، لكن حتى هذا الحلم البسيط ظل بعيد المنال. كما عجز عن تحقيق رغبته الأكيدة في النأي بنفسه عن تقلبات السياسة، فغرق وسط لُجَّة ما أفرزته من انقلابات عسكرية دموية، واستقطاب إيديولوجي عنيف جرَّاه جرَّاً لساحتيهما، وهو ما دفع بسليم الوردي ليجعل أحد فصول الرواية تحت عنوان "ولم يسلم من طشيش السياسة" (الوردي س.، 2014، الصفحات 127 – 143).

وإذا كان هناك لاعبون كثيرون من مشارب مختلفة، ولهم رؤى متباينة قد أسهموا جميعاً بصنع الدولة العراقية، وفقاً لتصوراتهم الخاصة: "الإنكليز، وفيصل الأول، وبكر صدقي، وعبد الكريم قاسم، وعبد السلام عارف، والشيوعيون، والبعثيون"، فإنَّ لاعبين آخرين أقلَّ شهرة وتأثيراً لم يكلفوا أنفسهم يوماً عناء سؤال إبراهيم عن ما يريد، بل سعى الجميع لقولبته بحسب رؤاهم، ومصالحهم الشخصية: "فالكل يسعى إلى تشكيله على النحو الذي يشاء، ابتداء بأبيه إلياس، مروراً بسيروان، وعبد الزهرة، وأبو نعيمة، ونعيمة أيضاً سعت إلى تشكيله كما تريد" (الوردي س.، 2014، صفحة 109). فكيف لهذا الطامع بالحياد، برمزية اسمه، ونزعته الانعزالية أنْ لا ينتهي رويداً رويداً فريسة للتشيؤ، والإحساس بأنَّ الوجود راح يفقد معناه؟

أخيراً، بقي أنْ نشير إلى أسماء شخصيات أخرى لا تَشُفُّ عن تَحَدُّرها عن جماعة بذاتها. وهو ما يمكن توزيعه على قسمين: أولها تجسده شخصيات ثانوية مثل الحاج عبد اللطيف مسؤول الأرشيف في المؤسسة التي يعمل فيها إبراهيم، وعلى الأغلب أنَّ إضافته لصفة اللطف الإلهي تتناغم مع دوره الوظيفي في الرواية، فقد كان بمثابة الأب الناصح لإبراهيم (الوردي س.، 2014، الصفحات 96 – 100)، ومثل اسمي فؤاد، وصابر، اللذين لا يلعبان أي دور في تحريك الأحداث، ويظهران كظل تابع لشخصية سيروان (الوردي س.، 2014، صفحة 77 ، 128، 134). أما القسم الثاني، وهو الأكثر أهمية ضمن الأسماء المحايدة: (أدهم، وحاتم، وسالم) فيأتي ترميزاً لشخصية الإنسان العراقي المنتمي للهوية الوطنية، ابن الطبقة الوسطى العصرية المستنيرة، التي وِلدِتْ ونَشَأتْ في العهد الملكي، واستمر عطاؤها لعقود لاحقة. ومما هو جدير بالملاحظة أنَّ الشخصيات المشار إليها، تشغل وظائف مهمة، فالأستاذ أدهم المدير المخضرم للدائرة التي يعمل فيها إبراهيم ذو شخصية إدارية ناجحة، وسيُعاد إلى وظيفته التي أبعد عنها بعد انقلاب/ ثورة تموز 1958، وقد صوَّرت الرواية حرصه على قواعد عمل مؤسَّسيَّة مهنية، حين أعاد الآنسة مادلين إلى الوظيفة، نظراً لكفاءتها في العمل، وكانت قد فُصِلتْ لأسباب سياسية، مع أنَّه لا يتوافق مع معتقدها الإيديولوجي (الوردي س.، 2014، صفحة 145).

في السياق ذاته يُمَثِّل الأستاذ حاتم، قاضي التحقيق في جريمة مقتل إبراهيم، شخصية رجل مبدئي، لا يخضع أداؤه الوظيفي لعلاقات الوساطة، أو التهديد المُبَطَّن من قبل أمين رجل الأمن البعثي الذي استُدعِي للتحقيق، فسعى لخوفه من الإدانة إلى حرف مساره بالحديث عن "أعداء الثورة"، لكن القاضي حاتم جَرَّده من أسلحته تلك بهدوء، وحكمة (الوردي س.، 2014، صفحة 203). أمَّا الصحفي سالم فمِن المُرَجَّح أنْ يكون صورة للمؤلف سليم الوردي، ليس لاشتراك إسميهما في الجذر اللغوي نفسه: "سلم: سالم، سليم" فحسب، بل لتشابه الدور الوظيفي لكليهما أيضاً، فسالم صديق للقاضي حاتم، وقد تلقى منه مساعدة ليُعدَّ تقريراً صحفياً عن جريمة قتل إبراهيم، وإشارة إلى كونها تصلح موضوعاً لرواية. وبالفعل، سيجد فيها مادة ثرية لرواية مُشوِّقَة، أبدى سيروان صديق إبراهيم استعداده لتمويل نشرها (الوردي س.، 2014، صفحة 15، 203).

بقي هنا أنْ نشير إلى أنَّ أسماء الشخصيات النسوية المسلمة، تتوزع على قسمين أيضاً: منها ما يحيل على شخصيات نسوية في التاريخ الإسلامي: "صفيَّة، خديجة، الست فاطمة"، وهو ما ينم عن طبيعة الانتماء المحافظ لأسرهن. ومنها ما هو محايد يخلو من الإشارة لانتماء هوياتي، فيأخذ صفة تفاؤلية:

"نعيمة، مديحة، سنيَّة، إنعام". لكن، علينا هنا أنْ لا ننسى أنَّ المجتمعات الأبوية تضمن استمرارية القيم الثقافية الرمزية لهويتها بواسطة ذُرِّيتها من الذكور، لا الإناث.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ رواية "سيرة إبراهيم" تشير في تمثيلها الرمزي لولادة هوية وطنية لشعب عراقي مُوَحَّد إلى أنَّ المخاض كان عسيراً. لكنها قدَّمتْ شواهد تؤكد على أنْ الانتماءات الفرعية القديمة لم تُفلح بفرض هيمنتها بصورة مطلقة على الجميع، سواء في نمط تمركزها المكاني "الحي المغلق"، أو ما كانت تُفضِّله من نسق التسمية، باختصار. كان هناك إرهاص لا يمكن إغفاله يشير إلى قرب نهاية حقبة، وبداية حقبة أُخرى، تأسَّستْ فيها مشتركات لذاكرة جمعية، وهوية وطنية صاعدة. وسنرى في الفصل القادم إنْ كانت ستنجح في إدامة زخم صعودها، أم أنَّ الأقدار تخبئ لها مصيراً آخر.

الفصل الثاني: السلطة قبل الدولة: العسكر والأحزاب

مثَّل حضور العسكر والأحزاب بوصفهما الفاعلَين الأساسيين الأكثر تأثيراً في مسار تشكل الدولة ملمحاً بارزاً في رواية "سيرة إبراهيم"، حتى أنَّ النقلات الحاسمة في الأحداث، سواء ما يتصل منها بالشخصية المحورية، إبراهيم الهامشي المحايد اللامنتمي، أو بتلك التي رسمت مصائر الشخصيات الأخرى جاءت متزامنة مع أحداث تاريخية مفصلية واقعية، كالانقلابات، والصراعات الإيديولوجية الدامية، وكان المسؤول المباشر عنها إمَّا طبقة العسكر، أو الأحزاب السياسية، أو الاثنان معاً، مما يجعل الوقوف عندهما أمراً لازماً. ولاشك في أنَّ الأحداث التي يختار مؤلف الرواية التاريخية توظيفها تدعم فهمه لحاضر بلاده، فالحاضر، بحسب هايدن وايت "هو في الوقت ذاته تحقيق لمشاريع أنجزها فاعلون بشر عاشوا في الماضي" (وايت، 2017، صفحة 326).

1 – العسكر: الانقلابات وظاهرة الاستقطاب

يُخَصِّص سليم الوردي مساحة كبيرة للانقلابات العسكرية. حتى أنه فضَّل أنْ تأتي ولادة بطل الرواية متزامنة مع حدث جلل لم يكن متوقعاً، ولا مبرراً. إذ وِلِدَ إبراهيم في اللحظة التي بوغِتتْ فيها الدولة العراقية الفتيَّة بانقلاب عسكري يُعَدُّ الأول على صعيد المنطقة، خطَّط له ونَفَّذه الفريق بكر صدقي،

ولم يكن مضى على تأسيسها سوى عقد ونصف: "في صبيحة التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة 1936، شعرتْ مريم بالإشارات الأولى للولادة، وأعلمتْ زوجها إلياس، فراح يبتهل إلى السيد المسيح، أنْ يُرزق ولداً، بعد أنْ رُزِق بابنتين. كان الجو طَيِّباً، والسماء صافية. على حين غرة سُمِع أزيز طائرات شُوهِدتْ في سماء بغداد.... جمع إلياس شتات ذاكرته، ليهتدي إلى ذكرى مناسبة وطنية تستدعي إلقاء منشورات من الجو فلم يهتد... حدث غريب وجديد في حياة أهل بغداد: طائرات عراقية تقصف بالقنابل مرافق حكومة عراقية!!! صورة معتمة لم تجد لها تفسيراً لدى طبقات الناس" (الوردي س.، 2014، الصفحات 17 – 18).

نحن، هنا، لسنا أمام مصادفة عفوية، بل تزامنية مقصودة، خطَّطَ لها سليم الوردي بوعي. وهو إذ يربط ولادة إبراهيم بحدث الانقلاب الأول، المُثْبَت تاريخه باليوم، والشهر، والسنة، والمُؤكَّد عنفه بثلاث علامات تَعجُّب، إنَّما يؤشِّر اللحظة المفصلية التي ستفتح شهية العسكر على منتهاها للتدخل في الشؤون السياسية، ومن ثمَّ إعادة رسم الدولة، وفقاً لقواعد جديدة، قواعدهم المستندة لمنطق القوة. إنَّ تأشير خطورة الانقلابات العسكرية، وتداعياتها الكارثية أمر لا يحتاج إلى قدر كبير من الفِطْنَة. حتى إلياس، الرجل البسيط الحريص على سلامة وليده الجديد، والذي رأيناه في الفصل السابق يختار له اسماً محايداً غير محسوب على جهة ما، خوفاً عليه، أدرك بفطرته أنَّ كل ما يُشاع عن النوايا الطيبة للفريق بكر صدقي تجاه الأقليات القومية، والدينية محض وهم لا أكثر: "لم يقتنع إلياس بهذه الأنباء، ولم يؤيد في قرارة نفسه فعل الانقلاب العسكري. ما دام هناك ملك يملك حَقَّ القرار، لماذا العسكر والطائرات والقنابل! وإذا أُتيحَ لكلِّ مَنْ يملك السلاح أنْ يشهره ويُملي إرادته بالقوة على الآخرين...ماذا سيحل بالبلد!!" (الوردي س.، 2014، صفحة 18).

في الواقع، إنَّ السؤال النابع من فطرة إلياس هو سؤال جوهري في عمق مفهوم الدولة، فثمة عنف غير شرعي أطلقه ضابط عسكري حَرَف مؤسسة الجيش عن وظيفتها الرسمية المتمثلة بالدفاع عن الوطن، وتَدخَّل في شؤون سياسية ليست من اختصاصه، وبحسب التعريف الأكثر شهرة لماكس فيبر فإنَّ الدولة هي الكيان الوحيد الذي يحق له أن يحتكر العنف المُتمثِّل بأجهزة البوليس، والجيش، والسجون، ونظام العقوبات. لاحقاً، سَيُطوِّر بيار بورديو هذا التعريف ليضيف له حداً رمزياً، ولتبدو معه الدولة أصلاً مُضْمَراً "لا يمكن إدراكه إلَّا في تجليات النظام العمومي (العام)، مفهوماً على أنه

نظام مادي فيزيقي، وعلى أنه نقيض الفوضى، والاضطرابات، والحرب الأهلية" (بورديو ب.، 2016، صفحة 19).

لا توجد في الرواية أيَّة آثار إيجابية لانقلاب بكر صدقي، ولم تساعد نتائجه أحداً من الشخصيات في التغلب على مصاعبه، أو أحداث نقلة إيجابية على صعيد التنمية، وإشاعة الحريات. كانت دلالته الأكثر حضوراً تأتي، فقط، من كونه البداية غير السارة لاعتماد معايير القوة غير القانونية للتغيير، والأهم أنَّه كان الدرس الأول الذي استوعبه العسكر، وفحواه أنَّ الانقلاب العسكري في العراق ليس بتلك الصعوبة التي قد يتخيلها البعض، لوجود فئات ساخطة من سياسات النظام الملكي، يمكن للعسكر كسبها لصالحهم (سباهي، 2002، صفحة 175). وبالفعل، لم تكد تمضي خمس سنين حتى بدأ شرر كرة النار الآخذة بالتدحرج يتطاير.

تشير الرواية إلى مقتل بكر صدقي، دون أنْ تقف عند أسبابه. في الواقع، لقد تَمَّ اغتياله بتخطيط من تكتل لضباط قوميين (الخطاب، 1979، صفحة 194)، هم المسؤولون عن انقلاب العام 1941. لم يقف سليم الوردي عند الانقلاب الثاني طويلاً أيضاً. فالتأرَخَة بذاتها ليست مهمة الروائي، لاسيما وأنَّ الحركة الثانية للعسكر لا تختلف في الدوافع الشخصية النفعيَّة لمنفذيها عن الأولى، فقد كانتا "حركتا عصيان وتمرد قام بها الشريفيون السابقون الأكثر شباباً أو الذين هم من الصف الثاني.... ضد العنصر الشريفي السابق المسيطر والذي يقدم الوزراء للحكم" (بطاطو ح.، 1995، صفحة 373). بمعنى أنَّ الطموح الشخصي لمجموعة صغيرة من الضباط راح يقرر مصير أمة لا تزال في طور التشكل، ودولة بأكملها! مِنْ هنا لجأ سليم الوردي لتقنية التلخيص، كيما يصل للحدث الأكثر إشكالية، والأشد تأثيراً، حدث سيقلب في الحقيقة كل الموازين التي قامت الدولة على أساسها، وسيُثار بشأنه جدل كبير، إنْ كان في حقيقته انقلاباً عسكرياً آخر، أم ثورة وطنية (الوردي س.، 2014، صفحة 85).

وإذا كان إلياس المسيحي المقيم في "عكد النصارى" قد تفاجأ ذات صباح بانقلاب هزَّ مسار الدولة العراقية، فأنَّ العم قلي الكردي القاطن في "عكد الكرد"، والذي احتضن "إبراهيم"، وجعله بمثابة ابن له، سيعيش صباحاً بغدادياً مشابهاً في الرابع عشر من تموز 1958، وستهديه فطرته هو الآخر إلى خطورة ما هو قادم من الأيام: "في الصباح الباكر استفاق العم قلي.. على صوت قرع شديد ومتواتر على الباب.... الثورة يا عم قلي، قامت الثورة، افتحوا الراديو....وراح العم قلي يلتصق بجهاز

الراديو، رغم أنَّ صوته كان مرتفعاً... وأخيراً عَلَّقَ: فعلها العسكر ثانية... ثم مَنْ هم أولاء الثوار... ما هي أسماؤهم؟ أخشى أنْ تكون فتنة يحترق فيها اليابس والأخضر" (الوردي س.، 2014، الصفحات 75 – 76).

لكن هل ما حدث هذه المرة كان انقلاباً عسكرياً آخر "فعلها العسكر ثانية"، أم ثورة أقامت نظاماً جمهورياً لتقويم بناء الأمة والدولة، وانصاف الشرائح المجتمعية المحرومة؟ وبعيداً عن التباين في الإجابة عن هذا السؤال الشائك، فإن مهمة البحث تقتضي منا توجيه الاهتمام لمواقف وردود أفعال شخصيات الرواية تجاه الحدث. إنَّ ردود أفعال جيل الآباء كانت أكثر تطلعاً للمحافظة، ونشداناً للهدوء والسكينة. لاسيما وأنهم عاصروا المخاض العسير لتأسيس الدولة العراقية، وعاشوا بأمان أيام العهد الملكي، فكانت أسئلتهم واقعية، تتعلق بالمصير، وبالوجود لا بالإيديولوجيا. لكننا نجد الراوي في "سيرة إبراهيم" يُسمِّي ما حصل ثورة، ويصور فرح العراقيين بها، وتجاوبهم مع شعاراتها (الوردي س.، 2014، صفحة 85). كما أنَّ الاستجابة الشعبية المرحبة بالتغيير – لا سيما في أيامه الأولى – كانت واضحة، فالشرائح الهامشية الفقيرة وجدت مَنْ يشرع أمامها أبواب الأمل، "نعيمة"، مثلاً، تعلَّمت القراءة والكتابة ومهنة الخياطة، وصار لأسرتها بيت في حي الشعلة الذي أسَّسه زعيم الثورة عبد الكريم قاسم، لإسكان فقراء المهاجرين إلى بغداد، وبزواجها بعبد الزهرة تكون قد نجحت بكسر الصورة النمطيَّة السائدة عن شريحتها المهاجرة، وحقَّقتْ حلمها بالإقتران برجل مَدينيٍّ. من هنا، بلغ حبها للزعيم قاسم، ومعها مادلين أيضاً درجة الولَه (الوردي س.، 2014، صفحة 111، 117). ينطبق الأمر ذاته على شخصيات أخرى قريبة من إبراهيم، مثل عمِّه جورج السجين السياسي الذي حرَّرته الثورة، وسيروان صديقه الأقرب منذ أيام الدراسة الابتدائية، وعبد الزهرة، وليس من قبيل المصادفة أنْ يكون كل هؤلاء شيوعيين مناهضين للعهد الملكي، مثلما سنعرف بعد قليل.

غير أنَّ السؤال الجوهري سيبقى ماثلاً بقوة: "هل توجد دولة ثورية؟ تكون الثورة قبل أن يُطاح بالنظام القائم، ما أنْ ينهار حتى يبدأ نظام جديد، وتنتهي الثورة لتصبح شعاراً تختفي وراءه أهداف الدولة الدائمة" (العروي، 2014، صفحة 40). هذا، فضلاً عن كون العسكر ممثلين بزعيمي الثورة: عبد الكريم قاسم، وعبد السلام عارف لا يملكان وعياً عميقاً بمفهوم الدولة، بل يستندان إلى روايات تتعلق بالهوية الوطنية العراقية في مثال قاسم، وباتحاد العراق الفوري مع الجمهورية العربية المتحدة "مصر وسوريا" في مثال عارف. ومع وجود فوارق أساسية بين الاثنين، في إيمان الأول بالوطنية العراقية،

وبالعدالة الاجتماعية، بمقابل القومية الشعاراتية للثاني، لكن تبقى هناك أوجه شبه تجمع بينهما، فحين اختلفا، وتصارعا بعد أيام قليلة من الثورة لجأ كل منهما لاستخدام خطاب التلاعب، والتجييش العاطفي لحشد وتحفيز الجماهير، والأهم أنَّ كلاً منهما عمد لإسقاط الآخر عبر الاستقواء بحزب عقائدي.

وحين يتم التغيير الثوري بأيدي عسكر غير منسجمين، محدودي الثقافة، ولا يحتكمون لأُسس مُتَّفَق عليها فإنَّ صراعهم على هرم السلطة مسألة وقت لا أكثر (حديد، 2006، صفحة 348). وقد كان وقتاً قياسياً بسرعة تدعو للعجب! لقدا بدا التغيير مثلما حدس إلياس أشبه بعرس جميل "سرعان ما يحلُّ تاريخ نفاده"، تماماً مثلما وصفه الحاج عبد اللطيف: شهر عسل قصير (الوردي س.، 2014، صفحة 86، 99). فالتنافر بين زعيمي الثورة: قاسم، وعارف برز على السطح منذ الأيام الأولى، وكانا بالأصل رفقاء سلاح، وصديقين مقربين. لقد أسَّسا ظاهرة استقطاب "polarization" خطيرة، نقلا عدواها إلى الأحزاب أيضاً، وهو ما لم يسبق أنْ شهد المجتمع العراقي مثيلاً له من قبل: "وتَجلَّى الاستقطاب واضحاً: القوميون مع عبد السلام، واليساريون مع (الزعيم)...، القوميون يَدعون إلى الوحدة الاندماجية الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، بينما يدعو اليساريون إلى الاتحاد الفيدرالي معها... وأخشى ما أخشاه أنْ يقود هذا الخلاف.... إلى احتراب بين أبناء الشعب الواحد" (الوردي س.، 2014، الصفحات 102 – 103). لقد قسَّم العسكر الشارع العراقي بين مَنْ تسميهم الرواية "هؤلاء"، أي الشيوعيين المؤيدين لقاسم، و"أولئك" أي البعثيين المؤيدين لعارف. وقد مسَّ هذا التصدع الكبير بنية المجتمع، وفرَّق الناس فريقين يجد كُلٌّ منهما في الآخر عدواً يتوجب القضاء عليه باسم الثورة، وكأنَّ الثورة غاية في ذاتها، وهو ما تقوله الرواية بوضوح تام: "كلنا وطنيون، نُحِبُّ الوطن ونفتديه. ولكن مشكلتنا أنَّ كُلَّ واحد منا يرى نفسه المُمَثِّل الوحيد للوطنية، ويرى فيمن يخالفه الرأي عدواً" (الوردي س.، 2014، صفحة 99).

على المرء أنْ يختار أحد الجانبين، فالاستقطاب الذي أطلقه العسكر لا يوجد فيه حلٌّ وسط، وهو ينشأ ويترسَّخ حين تتباين المواقف تجاه قضايا سياسية، فيبدأ كل طرف بالتشكيك والطعن بالطرف الآخر، واجداً فيه خطراً يتهدد كيان الدولة، ووجود الأمة. وبينما ينشران في الفضاء العام خطابات حماسية عن قضايا من قبيل الاستقلال، والوحدة العربية، وصيانة مكتسبات الثورة من مؤامرات الأعداء، يحافظ الطرفان على وجودهما من خلال معارضتهما لبعضهما البعض على نحو عنيف، ومواجهة مستمرة، مما يعيد إنتاج المشاكل المجتمعية، ولا يساعد على حلها. وخير مثال على ذلك ما تصوره

الرواية من تَعرُّض أحياء بأكملها لتنكيل ثأري، وقسوة انتقامية على يد نظام عارف والبعثيين في انقلاب العام 1963، مثل ما حصل لعكد الكرد، ومدينة الكاظمية المتعاطفة، والمتضامنة مع قاسم والشيوعيين (الوردي س.، 2014، الصفحات 134 – 137، 139 –140). وإنَّها لمفارقة حقاً، مع أنْ الرواية تستعيد هنا أحداثاً واقعية، فبعد كُلِّ ما شهدناه في الفصل الأول من مسعى للتحرر من الإرث القديم لثقافة الحي المغلق أيام العهد الملكي، لصالح الانتماء لهوية عراقية جامعة عادتْ تلك الأحياء لتصبح في العهد الجمهوري الثوري قلاعاً مغلقة للأحزاب! ولأنَّ عكد الكرد، والكاظمية استمرا يقاومان الانقلاب حتى بعد تَوقُّف المقاومة في بقية الأحياء فقد "عُومِلَتْ... وكأنَّها بلد عدو" (بطاطو ح.، 1999، الصفحات 296 – 298، 300).

في الواقع، إنَّ صراع كسر العظم الاستقطابي بين متخاصمين يتزعمان أعلى هرم السلطة، أثبت أنَّ العسكر يمكنهم أنْ يسقطوا نظام حكم، وأنْ يَهزُّوا أساس دولة، لكنَّ نمط الدولة التي يتخيلونها، والتي سيقتل بعضهم بعضاً للانفراد بالهيمنة عليها لن ينعم أبداً بالاستقرار. وإذا كان أحد أشهر دارسي حقبة انقلاب/ ثورة تموز يقرر أنَّ نظامها قد أصيب بالشلل والركود طيلة الشهور الثلاثين الأخيرة من عمره (دان، 2012، صفحة 403)، فإنَّ الرواية لم تغفل عن تصوير تلك النهاية: "مَرَّتْ الشهور، والأحداث تتلاحق، والسفينة تَتَأرْجَح في عباب البحر، يساراً ويميناً، والرُّبان يقود الدفَّة ويحاول الموازنة: مرة يقرص (هؤلاء)، وأخرى (أولئك). يُحَجِّمُ (هؤلاء) فينتعش (أولئك)، فيلتفت إليهم، ويهوي على رأسهم بقبضته. حتى بات الجميع في انتظار الصفعة" (الوردي س.، 2014، صفحة 124). لا رمزيات مبهمة في هذا النص. من الواضح أنَّ "السفينة" المتأرجحة هي صورة الدولة العراقية في ظل حكم العسكر، و"الزعيم" الذي أصبح ربَّاناً هو عبد الكريم قاسم، المُربَك في حلِّ معادلة صعبة التحقق، تقتضي إيجاد نقطة توازن، لا لكي يتصالح فوقها "هؤلاء، وأولئك"، بل ليستند إليها في إبقاء السلطة "الدفة" طوع يديه فقط.

بحسب حنَّة آرندت، فإنَّ الثورة – أيَّة ثورة – أشبه ما تكون بالحرب، وهي وإنْ وجدتْ التمييز بين الاثنين أمراً ضرورياً، تعود لتضيف بحسم: "يجب علينا ملاحظة أنَّ الثورات والحروب لا يمكن تصورهما خارج ميدان العنف، وهذا وحده يكفي لوضعهما كليهما بعيدين عن الظواهر السياسية الأخرى. إنَّه من الصعب الإنكار أنَّ من أسباب ... الميل المشؤوم الذي أظهرته الثورات لاندلاع الحروب، هو إنَّ العنف نوع من أنواع القواسم المشتركة بينهما" (أرندت، 2008، صفحة 23). هكذا،

دارت دوامة عنف غير مسبوق. فنظام الزعيم قاسم سار حثيثاً نحو نهايته كما تقول الرواية، لقد بدا وحيداً، ومعزولاً بلا نصير، بعد أنْ زجَّ بالسجون في حملة اعتقالات حتى أولئك الذين ساندوه، ووجدوا في حركته ثورة وطنية. وفيما يشبه المفارقة، أعادت السلطة الثورية سجن جورج الذي أطلقت سراحه، بعد أنْ كان قد قضى عشر سنوات في سجن نكرة السلمان أيام العهد الملكي، وسُجن عبد الزهرة أيضاً، حتى إبراهيم الذي عرفناه حيادياً مسالماً بعيداً عن جميع ما له صلة بالسياسة تَعرَّض للتوقيف، والتعذيب العنيف، بلا تهمة. وحدث أنْ "تفاقمت الأحداث في كردستان، شمالي العراق، بين الملا مصطفى البرزاني، وحكومة الزعيم، وبلغت حد الاقتتال الشرس" (الوردي س.، 2014، صفحة 127). وبينما كان الزعيم قاسم مُتَوجِّساً من قوة الحزب الشيوعي، حتى أنَّه تخفى في سيارة إسعاف ليقف بنفسه على رصيدهم الجماهيري في إحدى تظاهراتهم الكبيرة (الوردي س.، 2014، صفحة 123) قضتْ عليه جموع البعثيين المتحالفين مع عارف. غير أنَّ دوامة الانقلابات العنيفة لن تعرف الهدوء، فتحالف العسكر والأحزاب هو محض تحالف نَفْعي مرحلي، إلى أنْ تسنح لأحدهما فرصة الانفراد بالسلطة. باختصار، هذه حصيلة منطق القوة. ومثلما كانت "صفعة الزعيم" التي مرّتْ بنا قبل قليل حاضرة للانقضاض فإنَّ "ضربة المُشِير" مُتأهِّبة سلفاً هي الأُخرى: "لم يدم نظام "أولئك" إلا زهاء عشرة أشهر. احتدمت خلالها التناقضات بين فصائلهم.... فعاجلهم (المشير عبد السلام) بضربة أزاحتهم من دائرة السلطة، ليتربع وحده على دست الحكم" (الوردي س.، 2014، صفحة 143).

2 – الأحزاب: العسكرة والسعي للسيطرة

يرمز سليم الوردي باسمي الإشارة الموضوعين دائماً في الرواية بين قوسين: "هؤلاء" إلى الحزب الشيوعي العراقي، و"أولئك" إلى حزب البعث العربي الاشتراكي. وهما حزبان كان لهما تأثير كبير في مجريات الأحداث، في الفترة التاريخية التي تتناولها رواية "سيرة إبراهيم"، ويمثل كل منهما – شأن أيِّ حزب سياسي آخر – مجموعة سياسية من الأفراد يتبنون معتقدات بذاتها، وتوجُّهاً فكرياً خاصاً. وإذا كانا يختلفان عن بعضهما في أُسس العقيدة الإيديولوجية، والأهداف، فإنَّهما، وعلى غرار نظام الزعيم الأوحد "قائد الثورة"، يتطلعان للوصول إلى قمة هرم السلطة عبر عقد تحالف مصلحي مع العسكر.

لكن، قبل البدء بدراسة تمثيلات هذين الحزبين نجد أنَّ من الضروري فهم السبب الكامن خلف اعتماد سليم الوردي اسمي إشارة، بديلاً عن اسميهما الصريحين. سنستبعد، سريعاً، أيَّ احتمال لخشية المؤلف من السلطة الدكتاتورية لنظام البعث، وكان لا يزال ممسكاً بالسلطة يوم كُتِبَتْ الرواية، فنشرها في ذلك العهد لم يكن مُتاحاً، كما أشرنا في التوطئة التمهيدية للبحث. فضلاً عن أن المؤلف سمَّى كل العناوين الأخرى بأسمائها، وقَدَّم سردية عن تاريخ الدولة، غير تلك التي كانت تقترحها، وتُنمِّقها السلطة، لتحتل فيها موقع الصدارة في النضال، والوطنية. وفوق ذلك، كان يُضمَّن أحداثاً واقعية تدين سلطة البعث، مثل قسوته المفرطة في التنكيل بأحياء، ومدن كاملة "مدينة الكاظمية، وعكد الكرد"، وتهجيره للكرد الفيليَّة، كما في مثال العم قلي، ومشهد الإعدامات العلنية في ساحة التحرير (الوردي س.، 2014، الصفحات 134، 139 – 140، 151159 – 161).

يُرَجِّح الباحث أنَّ دوافع تغطية اسمي الحزبين تعود لرغبة سليم الوردي بأنْ يوفر للأفكار وتمثيلاتها المُجَسَّدَة صفة الحياد، وأنْ يبعد عن نفسه أيَّة شهبة بالانحياز إلى يسار يمثله الشيوعيون وحليفهم قاسم، أو يمين يجسده البعثيون وحليفهم عارف. لاسيما وأنَّ نزعة الاستقطاب العالية بين المعسكرين، والتباين في تقييم أدوار كلٍّ منهما لا يزالان يثيران الكثير من التجاذبات حتى اليوم. فكان اللجوء لاسم الإشارة بدافع خلق مسافة دلالية إيحائية كافية، تفصل قراءة المؤلِّف لتاريخ العراق عن شوائب التعصب الإيديولوجي. ولنا أنْ نسأل هنا إنْ كان الحياد التام أمراً ممكناً، أو إنْ كانت اللغة ذاتها، بوصفها نظاماً تواصلياً محايدة بالدرجة نفسها أيضاً، فاسم الإشارة "هؤلاء" يستخدم للدلالة على الجمع القريب، في حين أنَّ "أولئك" يشير إلى البعيد. هذا، إذا تركنا جانباً نشأة سليم الوردي إبَّان مرحلة تَشَكُّل وعيه السياسي، والوطني في مدينة الكاظمية، وقد عرفنا ميولها القاسِمِيَّة اليسارية، وما تَعرَّضتْ إليه من تنكيل بعد نجاح انقلاب البعث الأول في العام 1963، أو حتى اكماله لتحصيله العلمي العالي في بلغاريا، يوم كانت جمهورية اشتراكية يحكمها حزب واحد، بإيديولوجيا ماركسية لينينيَّة، وهذه كلها مُؤثِّرات تدفع به نحو اليسار.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ رؤية سليم الوردي كانت محكومة بالموضوعية، وهي التي ضمنتْ له التمثيل الدقيق لروح الواقع. ولعل مجازفته المتمثلة بجعل حبكة الرواية مبنية على سرد سيرة شخصية هامشية انعزالية غير منتمية "إبراهيم"، ومُسْتَمدَّة من قاع المجتمع، وليس شخصية تقليدية لأنموذج بطل إيجابي مناضل، أو مثقف عضوي فاعل يندرج في السياق ذاته، ويدعم فهم سليم الوردي للصيرورة

التاريخية لدولة تمثل مجتمعاً متعدد الثقافات، فيفترض أنْ تنأى عن ضيق الإيديولوجيا، لتضم تحت سقفها جميع المكونات: "الوطنية... ليست ثوباً نخيطه على مقاسنا، فإنْ لم يأتِ على مقاس الآخرين.... تركناهم عراة منه...وليذهبوا إلى الجحيم، الوطن يا ولدي خيمة، لا ثوباً" (الوردي س.، 2014، صفحة 99).

كان جورج لوكاش، وهو من ألمع دارسي الرواية التاريخية لا ينفك يؤكد أنَّ الأكثر أهمية في هذا النمط السردي لا يتحقق باستعادة أحداث تاريخية كبرى، بل في "الايقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث... أنْ نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أنْ يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماماً في الواقع التاريخي (لوكاش، 1986، صفحة ٤٦). من هنا، جاءت نماذج الشخصيات الحزبية في الرواية واقعيَّة لا مثالية، يسهل للمتلقي فهم أسباب انتمائها السياسي، وثباتها، أو حتى انكسارها، وتَغيُّر قناعاتها، أحياناً. كما في مثال الشخصيات الشيوعية، ولأغلبها صلات وثقى ببطل الرواية إبراهيم، مثل عمُّه جورج، وصديقه الأقرب سيروان، وصديقه، وزميله في الوظيفة عبد الزهرة، ونعيمة التي كاد أنْ يتزوج بها، وشخصيات ثانوية أخرى مثل مادلين زميلته في الوظيفة، وستصبح لاحقاً زوجة لجورج، والست إنعام ، الناشطة في رابطة حقوق المرأة في الكاظمية، ومعلمة نعيمة في دورة محو الأُميَّة، وهي التي أقنعت الأخيرة بالتعاون مع الحزب الشيوعي، بعد الانتكاسة التي تعرض لها في العام 1963 (الوردي س.، 2014، الصفحات 121، 146 – 147).

يبدو جورج الذي كان يعمل مُعلِّماً في مدرسة ابتدائية في بغداد أكثر وعياً سياسياً من أقرانه، ومؤثراً فيهم إلى حد بعيد، كما سيظهر في مثال شخصية سيروان، بعد قليل. لكن قبل أنْ تنضجه التجارب كانت نقمته تجاه سلطة العهد الملكي تبدو أشبه بنغمة شعاراتية، فهو قد استشاط غضباً يوم أُعطيتْ لإبراهيم ابن أخيه بدلة من قبل مدير المدرسة، أسوة بفقراء التلاميذ (الوردي س.، 2014، صفحة 21). في حين يبدو عبد الزهرة أقرب للممارسة السياسية العملية، يفكر بمعارضة السلطة الملكية، حتى وإنْ كانت طبيعة نشاطه المعارض لا تخلو من استغلال مصلحي، مثل ما يظهر في جوابه لإبراهيم عن ما إذا كان يشارك في مواكب العزاء العاشورائية في مدينته الكاظمية: "أنا لا أشارك في هذه المواكب، وإذا ما شاركتُ فبهدف....، أشارك أحياناً في مواكب المساء، لترديد بعض الأهزوجات

ذات المضمون السياسي (وهمس في أذنه) نلعن الحكومة، والإنكليز، من خلال اللعنات التي نكيلها ليزيد وبني أمية" (الوردي س.، 2014، صفحة 47).

مرة أخرى، نجد أنفسنا في النص المتقدم أمام تفاصيل مُستمَدَّة من الواقع، ومن المُرجَّح أنَّ سليم الوردي كان قد عايشها عن قُرب، إذ سبق لإبراهيم الحيدري أنْ نقل ضمن دراسته للمواكب الحسينية في مدينة الكاظمية قيام بعض الأحزاب، بضمنها الحزب الشيوعي باستغلال طقوس عاشوراء لتمرير أهدافها وشعاراتها السياسية" (الحيدري، 1999، صفحة 434). كما يظهر التمثيل الواقعي في شخصية عبد الزهرة في انتهازه لفرصة الزواج من نعيمة، واستخدامه للغة أهل الريف ب"خبث" لكسب ود أبيها، دون أنْ يتعارض ذلك مع شجاعته البطولية في مقاومة أعدائه حتى النفس الأخير، وحرصه على سلامة أهل مدينته الأبرياء من عنف العساكر التي طَوَّقتْ "أم النومي"، وبقية أحياء الكاظمية (الوردي س.، 2014، الصفحات 122، 139 – 140).

أمَّا سيروان، الشاب الكردي القوي، وهو الصديق الأقرب لإبراهيم، فقد استمات في الدفاع عن ما اعتبره ثورة وطنية أطلقها الزعيم قاسم. على إنَّ انخراطه ضمن صفوف الحزب الشيوعي، وهو في أولى مراحل شبابه يتضمن غمزاً لنهج الأحزاب الإيديولوجية، وميلها لكسب أنصار ومؤيدين لصفوفها، دون أنْ تعمل على الارتقاء بأفكارهم، وتنمية وعيهم. لقد كان واحداً من أسباب تَشدِّده في انتمائه السياسي يرجع إلى ما هو شائع عند شريحة الشباب من نزعة التقليد، والانبهار بنموذج بطولي جاذب، أكثر من كونه سبباً فكرياً، وعقائدياً راسخاً: "تأثَّر سيروان بشخصية جورج منذ لقائه الأول به.... شغف به، بنبرة صوته، وأسلوب كلامه.... ووجد نفسه من دون وعي منه يُقَلِّد حركة يده، وايماءات وجهه" (الوردي س.، 2014، صفحة 141).

بالمقابل، فإن الشخصيات البعثية كانت أقلَّ عدداً، ولم تضم أيَّة شخصية نسوية، ولا يظهر لها موقف مناهض ضد العهد الملكي. كما أنَّ الصفة الأمنية هي الغالبة عليها. ولعل سرمد، وهو بحسب الرواية "شيخ أولئك" بعد نجاح انقلاب البعث الأول في العام 1963 ما كان له أنْ يتعامل مع مخاوف إبراهيم زميله في الدائرة بمروءة وشهامة لولا يقينه بالحياد التام لهذا الأخير، وابتعاده الكامل عن الاصطفاف السياسي (الوردي س.، 2014، الصفحات 138 – 139). أما الأنموذج الأكثر حضوراً، وتعبيراً عن طبيعة توجهات البعث في ظل حكمه الثاني في ثمانينيات القرن الماضي فتظهره شخصية أمين مسؤول أمن الدائرة. إنَّه يبدو مُشبعاً بالسمات العدائية، لا يملك مؤهلاً علمياً، وقد استمات في سبيل التشبث

بمنصبه، لأنه يسد شعوره بالنقص. وهو يبث الجواسيس ليزودوه بأخبار الدائرة، ويظهر وهو يهدد الموظفين بقطع ألسنتهم، ويرفع عن من يشُكُّ بولائهم التقارير إلى ضابط أمن الوزارة، وحتى هذا الضابط، برغم هامشية حضوره يتحدث عن ضرورة التصدي لما يسميه "مكامن التآمر" بلغة أمنية طافحة بالعنف (الوردي س.، 2014، الصفحات 9 – 11، 176).

إنَّ الدولة في حقيقتها كيان معنوي يتجسد في مؤسسات رسمية، يفترض أنْ تُدار من قبل كادر مهني كفوء، ومنضبط، تقع على عاتقه مهمة تطبيق القوانين. إنَّهم الموظفون البيروقراطيون، بشرط أنْ نتجاوز هنا دلالة "الروتين" التي تلازم أحياناً هذا التوصيف، وصولاً لدلالة موظفين منضبطين ينخرطون في عمل، يديرون به – كُلًّا بحسب رُتْبته وتخصصه – مؤسَّسة ما (العروي، 2014، الصفحات 90 – 91). لكن السعي للسيطرة جعل الأحزاب تهيمن على المؤسسات الحكومية، وتُعيِّن فيها أتباعها ومقربيها في مناصب تفوق قدراتهم، بعد أنْ تستبعد أصحاب الكفاءة. وإنْ كان الشيوعيون في أيام نفوذهم قد أعادوا إبراهيم إلى دائرته القديمة التي نُقل منها استناداً لمقتضيات "المصلحة العامة" (الوردي س.، 2014، صفحة 90)، وأصبح مديراً لشعبة الطابعة، فإنَّ البعثيين سَيُصيِّرون المؤسسة الحكومية قلعة نفوذ، ويُسلِّطون أمين الأميَّ على رؤوس موظفين مدنيين: "ارتبكتْ خديجة حين بُلِّغَتْ باستدعاء (مسؤول الأمن) لها، خاصة وأنَّ الست ماري أسمته (ضابط الأمن)، فتخيلته ضابطاً في الزيِّ العسكري، استفسرتْ خديجة عن دواعي استدعائها، فراق للست ماري أنْ تتحدث قليلاً، فقالت إنَّها لا تفقه بمهام ضابط الأمن، فهو يستدعي أيَّ موظفة أو موظف متى يشاء! فزاد هذا الكلام من ارتباكها وحيرتها" (الوردي س.، 2014، صفحة 178). في المجمل، قدَّم سليم الوردي عبر شخصية أمين تمثيلاً رمزياً لآليات حكم البعث، وسطوة هيمنته الدكتاتورية على جميع مفاصل الحياة بعد نجاح انقلابه الثاني في العام 1968. وبحسب عالم الاجتماع العراقي فالح عبد الجبار فقد "أنشأ البعث ماكنة جبارة للسيطرة، فَنَمَتْ بدرجة هائلة بيروقراطية الدولة والقوات العسكرية، وقوى الأمن" (عبدالجبار، 2010، صفحة 96).

لقد كان الحزبان السياسيان الأكثر فاعلية يتشابهان في توجهات أخرى أيضاً، فهما مسؤولان عن تنمية نزعة الاستقطاب الحاد التي أطلقها العسكر، واعتماد خُطَط أشاعتْ في المجتمع العراقي ثقافة العسكرة "militarization"، فجعلت من أناس مدنيين جنوداً متأهبين للقتال في أية لحظة. لقد حرص سليم الوردي على رصد الزخم المتصاعد لثقافة العسكرة، وكيف تنتهز الأحزاب فرصة الانقلابات

العسكرية لتزجَّ أتباعها في تنظيمات مُسَلَّحَة خارج مؤسسة الجيش الرسمي حامي الدولة. تندرج "المقومة الشعبية" في هذا السياق، وهي قوة عسكرية انضم إليها الشيوعيون، وقد صورتْ الرواية أفرادها وهم في حالة استنفار، يُؤمِّنون الشوارع لحماية حليفهم عبد الكريم قاسم. كان إبراهيم قد أُجبِر على الانضمام إليها لفترة قصيرة تحت إلحاح سيروان: "وبينما كان الآخرون يرتدون بدلة الخاكي، ويخرجون إلى الطرقات والشوارع، يتبخترون بها، ذهاباً إلى مراكز التدريب، وإياباً منها، كأسلوب للتعبير عن مشاعرهم الوطنية الجيَّاشة، ولإرهاب الرجعية، وأعداء الثورة كان إبراهيم يتحرج من السير في الطرقات، مرتدياً بدلة الخاكي، فراح يحملها إلى مركز التدريب، ويرتديها هناك، ويعود ليخلعها بعد انتهاء التدريب" (الوردي س.، 2014، صفحة 95).

ما هي عواقب نزعة العسكرة على السلم الأهلي، والتعايش المجتمعي، وعلى الهوية الوطنية الجامعة أيضاً، تلك التي رأينا في الفصل الأول كيف أخذت تتنامى في أخريات العهد الملكي؟ علينا أنْ ننتبه هنا إلى أنَّ "أعداء الثورة" في النص المتقدم توصيف عام، سيشمل بالضرورة كل أولئك الذين لهم وجهة نظر سياسية مخالفة لرؤية لجان "المقاومة الشعبية"، ومن ورائها الحزب الشيوعي. ولمَّا كان للقطب المقابل "حزب البعث" تنظيمه المسلح الخاص به هو الآخر "الحرس القومي"، فستصبح الشوارع، والساحات العامة ميداناً لاقتتال عبثي بين أبناء الشعب الواحد: "توالتْ الأحداث، وتأزَّمتْ الأجواء بين اليساريين والقوميين، وبَلَغَتْ حدَّ الصدامات والاغتيالات، وراحت جماهير (هؤلاء) و(أولئك) تُشَيِّع ضحايا هذه الصدامات وهي تتوعد بالثأر والانتقام!" (الوردي س.، 2014، صفحة 104). هكذا. فإن قائمة الضحايا الآخذة بالتزايد لن توفر أحداً، فعبد الزهرة سيُعدم أمام ضريح الإمام الكاظم بعد أن قاوم بضراوة انقلاب البعث الأول ضد حكم الزعيم قاسم، وانكسر جورج تحت التعذيب، وأُجبر على الظهور على شاشة التلفاز ليعلن تأييده لخصومه. وهنا، فإنَّ من الطبيعي أنْ نشهد ميولاً للعودة إلى الهويات الفرعية، مثل ما حصل لسيروان الذي غَيَّر اتجاه بوصلته الإيديولوجية الأكثر رحابة، ورجع لهويته الكردية: "لم يعد ذلك السيروان الذي عهده، فقد أعادتْ خيبة الأمل صياغته... ولاحظ إبراهيم أنّ المفردات الكردية تتزايد في حديثه... أمَّا أحاديثه السياسية فتكاد تقتصر على تطورات الحركة الكرديَّة، وصار يتحدث عن رموزها باحترام، خلاف ما كان من غمز ولمز عليها سابقاً" (الوردي س.، 2014، صفحة 144).

لكن حتى العِرْق الكردي ذاته لن يكون بمنأى عن رغبة البعث بتشتيت واضعاف المكونات المجتمعية، فأخضع الكرد لتصنيف يقسمهم إلى فرعين مغضوب على كليهما، ومن سوء حظ إبراهيم، أنْ يكون راعيه وحاميه "العم قلي" ضمن الفرع الذي ستُتنزع عنه صفة المواطنة العراقية، ويتم تسفيره إلى إيران: "وتبعتْ هذه الأحداث حملة شعواء، لتسفير مجاميع كبيرة ممن أُطلِقتْ عليهم تسمية التبعية الإيرانية. علم إبراهيم، لأول مرة، أنَّ شهادة الجنسية العراقية، تشير إلى تَبعيَّات مختلفة، عثمانية، وإيرانية، وهندية .... وتساءل مع نفسه: أين إذنْ التَبعيَّة العراقية" (الوردي س.، 2014، صفحة 159). سيموت إبراهيم دون أنْ يحصل على إجابة شافية عن سؤاله المتقدم. ومَنْ تراه سيعبأ بسؤاله أصلاً؟ فحين لا يعارض أحد السلطة المستبدة علناً، فلن تجد نفسها ملزمة بالإجابة عن أي سؤال، ولن تتورع عن أي فعل غير قانوني (سكوت، 1995، صفحة 76).

إنَّ ما أبقى إبراهيم حياً برغم معاصرته لعنف الانقلابات العسكرية المتتالية، يعود فقط لميله للعزلة، ونزعته الحيادية. لكن الكوابيس التي بقيتْ تنذره بأنَّه سيموت مقطعاً بالسكاكين ظلت تقضُّ مضجعه (الوردي س.، 2014، الصفحات 104 – 106، 152)، ويبدو أنَّ جذرها يعود إلى خلل في ثقافة الحاضنة المجتمعية الأولى، وأساليب التربية الأسرية: "ثمة هاجس، زُرِعَ في خَلَدِه، ... مصيرك يا إبراهيم هو الذبح... المدية مُسلَّطة على رقبتك. مدية مَنْ، ولماذا، ومتى ستنهال على رأسه؟ لا يدري. والحقيقة أنَّ بذور هذا الهاجس مزروعة في لا شعوره منذ الطفولة: مشهد ذبح الديك الرومي، الذي اشتراه أبوه إلياس فرخاً صغيراً. فتآلف إبراهيم معه حتى كَبُر. وفي عشية عيد رأس السنة، ذُبح أمام ناظريه. وخلال دقائق، وضع في ماء حار، وانتزع ريشه، وقطعت رجلاه، وفُصِل رأسه عن جسده..." (الوردي س.، 2014، صفحة 108). وإذا كان سليم الوردي قد أثار فضول متلقيه، حين وضعه منذ الصفحة الأولى أمام المشهد المروع لجثة إبراهيم، فإنه لم يكشف عن لغز الجريمة تحت عنونة دالَّة، ومثيرة: "شطحة مهلكة" إلَّا قُبَيل الخاتمة. فما هي طبيعة تلك الشطحة؟

في ظل نظام حكم شمولي مثل نظام البعث يمكن أنْ يفقد الإنسان رأسه لأتفه الأسباب. لقد بقي إبراهيم وحيداً، بلا أُسرة، ولا زوجة، ولا صديق، بعد أنْ ساقت الأقدار كل المقربين منه إلى نهايات مؤسفة. ولم تكن "شطحته المهلكة"، هو الذي ناهز الخمسين دون أنْ تكون له علاقة بأيَّة امرأة، سوى تقبيله في لحظة طيش للفتاة الكردية خديجة، وهو يعلمها الضرب على الآلة الطابعة. مرَّت تلك الحادثة دون أن تثير أية مشكلة. بعد شهرين، وفيما يبدو أشبه بنكتة سَمِجَة، سيُقدَّم مسؤول الأمن "أمين" استمارة طلب

معلومات لخديجة، تتضمن أسئلة عن الاسم، والعمر، والجنس. هذا السؤال الروتيني الأخير يُراد منه معرفة إنْ كان الموظف ذكراً أم أنثى، مثلما هو معروف للجميع. لكن، بسبب جهل خديجة، وما ترسَّخ في ذهنها بتأثير مُعَلِّمَة التربية الإسلامية من أنَّ أيَّ تماس مع الرجل، ولو بحدود المصافحة هو غواية جنسية! ولشدة خوفها من أمين الذي كان يكرر أمام الموظفين أنَّه يعرف عنهم كل شيء كتبتْ خديجة "بيدٍ مُرتَجِفَةٍ أمام كلمة الجنس: (مرة واحدة)" (الوردي س.، 2014، صفحة 180)، كلمتان فقط، كانتا أكثر من كافيتين لجعل كوابيس إبراهيم حقيقة.

إذن، لقد قُتِل إبراهيم، لكن مَنْ هو القاتل؟ أو بالأحرى: مَنْ هم القتلة؟ أهو جهل خديجة، وخوفها من قمع السلطة، أم الحقد المتبادل بين مسؤول الأمن أمين، وخسرو الكردي المنفي إلى بغداد من قبل السلطة؟ فقد سارع الأول بنقل سوء الفهم في جواب خديجة ليغيظ غريمه، بعد أنْ سبق لخسرو الادعاء بعناد أنَّ نساء الكرد أكثر حرصاً على الالتزام الأخلاقي من نساء بغداد، أم لعلهم الأهل والعشيرة، حين هرعوا بدفع من خسرو ليثأروا لشرفهم، فاستدرجوا إبراهيم البريء، وقطعوا جسده إلى أشلاء؟ (الوردي س.، 2014، الصفحات 176، 189، 194 – 195).

في الواقع، إنَّ شخصية خديجة ليست سوى النسخة الأنثوية من أنموذج إبراهيم، فكلاهما ضحية لا لعنف، وسوء إدارة العسكر، والأحزاب فحسب، بل لعنف آخر يصدر عن خلل بنيوي في بنية السلطة، وفي ثقافة المجتمع سواء بسواء. يتجلى ذلك في سوء توزيع الثروة، فإبراهيم وخديجة يشتركان في الانتماء لمكوِّن هوياتي فرعي، ولأسرة فقيرة، مما حرمهما من اكمال الدراسة الجامعية، والانخراط في العمل. كما يظهر ذلك الخلل في أساليب التربية الأسرية، وفي نظام التعليم، فلا غرابة في أنْ يكونا عرضة لندوب عاطفية، وشروخ نفسيَّة. وبالوقوف عند نظام التعليم كما تظهره الرواية، نجد تجليات لِمَا كان يصفه بورديو بالعنف الرمزي التعسفي للسلطة التربوية (بورديو ب.، 1994، صفحة " ١٧ وما بعدها)، وهو ما لم يكن مُمثَّلاً في الرواية بمُعَلِّمَة خديجة المُتزَمِّتة واليائسة من الزواج، لافتقادها للوسامة فحسب، بل بالإشارة، أيضاً، إلى خوف إبراهيم من الالتحاق بالمدرسة التي بدتْ له سجناً، ولجوء أبيه لاستخدام العنف ليجبره على الدراسة. كان إبراهيم يرتعب مِن فَرَّاش المدرسة الذي كان يحتجزه ريثما يبتعد أبوه، ومن سطوة معلميها "المُخيفين"، ومديرها "المُرعِب". ولم يَهْنأ بلحظة سلام من أذى طلبتها العدائيين إلَّا بالتحاق سيروان بالمدرسة نفسها، وانعقاد أواصر الصداقة بينهما، فهذا

الأخير كان يرد العنف اللفظي في سخرية الطلبة من لكنته الكردية بلكمات، وركلات مؤلمة، فهابه الجميع (الوردي س.، 2014، الصفحات 19 – 20).

ولم تكن الأسباب المتقدمة لتفعل فعلها لولا غياب معنى الدولة، بتغييب مؤسساتها، واختزالها إلى سلطة حزبية دكتاتورية، نشرت فوضى العداء، والاقتتال بين المكونات. وفعلياً، كانت هناك أكثر من فجوة تفصل أمين عن خسرو، فالأول وجه النظام الأمني الحاكم، والثاني صورة لمقاتل في صفوف الثورة الكردية بعد خسرانه المعركة، وتعرِّضه للنفي، والإذلال. إنَّها حكاية غالب ومغلوب، طرفاها عربي بعثي منتصر يريد التَّشَفِّي بعدوه، وكردي مهزوم يريد الثأر لكرامته، ولو بتسويق ادعاء لا أساس له، يستهدف شرف مَنْ صار مُصَنَّفاً ضمن خانة "آخر" معادٍ، لا شريكاً في الوطن، والمواطنة. بعبارة أخرى كانت فرص الانسجام، والتفاهم بين أمين وخسرو معدومة، ف"الأفراد الذين يشبُّون في نظام سياسي يموج بالانقلابات والاغتيالات والاعتقالات... والحركات السياسية لم يكونوا مهيئين للتحرك في مناخ سياسي يؤكد على الحوار السلمي والعقلاني" (حرب، 1987، صفحة ١٦٩). بالمقابل، قدَّمَتْ الرواية أنموذجين إيجابيين جاذبين لصورة الرجل الكردي: العم قلي، وسيروان. وسيبدي هذا الأخير قدراً كبيراً من الوفاء لمعاني الصداقة، حين بادر لإثبات براءة إبراهيم بعد مقتله، ومن الشهامة أيضاً، في إنقاذه للفتاة خديجة من انتقام أسرتها، حين أبدى استعداده للزواج بها (الوردي س.، 2014، الصفحات 197 – 199، 203 –205).

مات إبراهيم اللامنتمي، الرجل الذي عاش على هامش الحياة، لكنه لم يكن مُفتقراً للوعي، أو بلا مواقف مبدئية، فهو برغم إيثاره للصمت أدهش عبد الزهرة الشيوعي، حين فكَّك سرديته الإيديولوجية بسؤال بسيط، وهو، أيضاً، مَنْ رفض بمروءة ووفاء أنْ يشهد ضدَّ مديره السابق، بعد أنْ أُقيل، وحوكم من قبل نظام انقلاب/ ثورة الرابع عشر من تموز (الوردي س.، 2014، صفحة 44، 93). وفوق ذلك، فقد استعاد إبراهيم ثقته بنفسه بعد النصائح التي تلقاها من صاحبة الحانة التي التقاها للمرة الأولى، وقرر أنْ ينتفض على واقعه: "تعهَّد أمام نفسه أنْ يبدأ منذ الغد صفحة جديدة في حياته، ينفتح فيها على الدنيا والناس. سيتزوج خديجة... ويُرزَق منها أولاداً... سيدعو أمه وأباه للعيش معه... كم سيفرح العم قلي والعمة صفية حين يعودان، ويجدان أولاده يملؤون البيت" (الوردي س.، 2014، صفحة 193). يجدر بنا التركيز في يد العون التي مُدَّت لإبراهيم أخيراً، وكأنَّها أتت من مصدر بعيد غير متوقع، لتثبت له أنَّ العالم في أحلك لحظاته لن يخلو من بارقة أمل. في الواقع، إنَّ سليم الوردي

يستلهم هنا روح الأدب العراقي القديم، فحين مرَّ كلكامش في أثناء رحلته للبحث عن الخلود بصاحبة الحانة سدوري أهدتْ له النصيحة ذاتها، وخلاصتها أنَّ أقصى نصيب لسعادة البشر يأتي من دفء، وحميميَّة الأسرة: تدليل الأولاد الصغار، وإسعاد الزوجة (باقر، 1971، صفحة 116). وخلافاً للبطل الأسطوري، فقد تقبَّل إبراهيم النصيحة، وسعى بصدق ليجعلها واقعاً. لكن انتفاضته الإيجابية هذه جاءت في الزمان الخطأ، زمان اللادولة منتصف ثمانينيات القرن الماضي، أو ما تسميه الرواية ب"السنوات العصيبة" (الوردي س.، 2014، صفحة 159 وما بعدها)، فكانت سكاكين القبيلة أسرع إليه.

إنَّ موت إبراهيم هو موت للحياد بوصفه قيمة جوهرية في مجتمع متعدد الثقافات. قتله هو قتل للدولة، مثلما تقول خاتمة الرواية، ومَنْ يتحمل وزره هم الجميع، كلٌّ بحسب حجمه ودوره. لكنهم بعد أنْ ظهرت براءة إبراهيم، عقيب مقتله، تذكروه فجأة، فهرعوا ليقيموا له العزاء: عرب، وكرد، مسلمون من الشيعة، والسنة، ومسيحيون، وشيوعيون، وبعثيون: "وشيئاً فشيئا، أصبح إبراهيم قاسماً مشتركاً، بين الطوائف والفئات والقوميات والأحزاب.. حتى أوشك أنْ يصبح قديساً... ولعله لن يمضي وقت طويل حتى يُطَوَّب!!!" (الوردي س.، 2014، صفحة 205). في الواقع، لقد كان هؤلاء يقيمون العزاء للدولة التي ضاعتْ، أو في الأصح: للدولة التي أضاعوها مِنْ أيديهم!

إنَّ نغمة السخرية الواضحة، في النص المتقدم، وسيلة للتخفيف من ثقل المأساة عند ختام الرواية، وكان سليم الوردي يوظفها في مواقف مشابهة (الوردي س.، 2014، صفحة 27، 32، 107، 122، 128، 131). وفيما يشبه مفارقة مضحكة مبكية معاً، تتنافس نادبتان "مُلَّايتان" لفرض السيطرة على مجلس العزاء، إحداهما مدينيَّة من الكاظمية، والثانية ريفية من الشعلة، تنشد أهازيج النعي بطور أهل "الشرجية". كان هذا التمثيل الساخر آخر إشارة رمزية يرسلها المؤلف، مؤكداً بها رجوع المجتمع إلى انتماءاته الفرعية الأولى، وتراجع الشعور بالانتماء للهوية الوطنية الجامعة، وباختصار لموت الدولة. ختام هو أشبه بعود أبديٍّ إلى نقطة البداية. وكأنَّنا أمام نبوءة، أو قراءة استشرافية من سليم الوردي، لِمَا سيكون عليه واقع المجتمع، وحال الدولة العراقية عشيَّة الاحتلال الأمريكي في العام 2003.

خاتمة بنتائج البحث

١ – إنَّ رواية "سيرة إبراهيم" هي رواية واقعية تاريخية قدَّم فيها سليم الوردي تمثيلاً رمزياً جمالياً لسيرة الدولة العراقية، في محاولة جريئة لفهم صيرورتها وتحولاتها، منذ بدايات تشكُّلها حتى منتصف ثمانينيات القرن الماضي.

2 – يمكن عدُّ رواية "سيرة إبراهيم" واحدة من أكثر الروايات العراقية احتفاء بموضوعة التنوع الكبير في مكونات المجتمع العراقي. وهي – بالنظر لتاريخ الانتهاء من كتابتها: 1997– من الروايات المبكرة في تناول موضوعة الهويات الفرعية، والهوية الوطنية العراقية الجامعة.

3 – تَوفرت لرواية "سيرة إبراهيم" حبكة مُتقَنَة، جمعت الخيالي بالواقعي، والحاضر بالماضي، فكان البدء بعرض الجثة المقطعة لبطل الرواية "إبراهيم" منذ الصفحة الأولى، ثم الرجوع لاستعراض سيرته يمنحان المتلقي متعة تشويقية لمعرفة لغز مقتله. أمَّا توظيف الأحداث المفصليَّة في تاريخ العراق الحديث فجاء بمثابة خلفية لدعم مسار القصة المُتخيَّلَة. أي أنَّ الخيال والتاريخ كانا يسيران في خطين متوازيين: الأول لعرض سيرة إبراهيم، والثاني لسيرة الدولة العراقية، وخير مثال على ذلك تزامن ولادة إبراهيم مع أول انقلاب عسكري في العراق، وهو ما أضاف للرواية قيمة أخرى، تظهر في بعد رمزي يُنَمِّي الفهم النقدي للمتلقي بالكيفية التي يُؤثِّر فيها الماضي بالحاضر.

4 – فضَّل سليم الوردي اعتماد راوٍ عليم "كُلِّي العلم" مُفارِق غير مشارك، تُروى الأحداث من وجهة نظره بضمير الغائب "هو". وقد تناسَبَتْ هذه الرؤية مع نمط الرواية التاريخية، فيسَّرَتْ له الحرية في اختيار الأحداث التاريخية، ومَكَّنتهُ من التعمق في فهم ما تفكر، وتشعر به شخصيات متباينة، وفي الوقت نفسه مَنحَتْ المتلقي فرصة التفاعل مع حبكة الرواية، ومعرفة أدق التفاصيل عن العالم الداخلي للشخصيات.

5 – تشير الرواية إلى أن ولادة المجتمع العراقي المُتَعدِّد الثقافات شَهدتْ مخاضاً عسيراً، فقد تأسَّستْ الدولة في العام 1921 قبل ولادة الأُمة، فكان على الهوية الوطنية أنْ تكافح لتأكيد حضورها، وتجاوز تناقضات الهويات الفرعية، بتمركزها في أحياء مغلقة على مكوَّن واحد، أو بنسقها الخاص للتسمية. وقد مَثَّلت الرواية بشكل رمزي صعود الروح العراقية، ومحاولات الخروج على مواضعات الأحياء المغلقة عبر احتضان شخصيتين كرديتين مسلمتين من عكد الكرد: العم قلي، والعمة صفية لإبراهيم المسيحي، واعتباره ابناً لهما من جانب، وبالأسماء المحايدة لشخصيات إيجابية مهنية من الطبقة الوسطى المتعلمة: "الأستاذ أدهم، وقاضي التحقيق حاتم، والصحفي سالم" من جانب آخر.

6- كان تصوير سليم الوردي لجدل العلاقة بين ثقافة جيل ما قبل الدولة، والجيل الذي نشأ في ظل الهوية الوطنية الصاعدة واحداً من أبرز تجليات التمثيل الرمزي لصيرورة مجتمع الدولة، كما ظهر في مسعى إبراهيم المسيحي لإشهار إسلامه للزواج من نعيمة المسلمة، ونجاح هذه الفتاه الريفية بالتحرر من مواضعات هويتها الفرعية القبلية بزواجها من رجل مديني.

7 – بنى سليم الوردي أحداث روايته وفقاً لقواعد المذهب الواقعي، يظهر ذلك عبر ربطه لمسار الحبكة الروائية المُتَخَيَّلة بأحداث تاريخية حقيقية، مثل الانقلابات العسكرية، والصراعات الحزبية. لكن تَوجُّهُهُ هذا لم يكن نابعاً من ضخامة تلك الأحداث بذاتها، بل مما أفرزته من ظواهر سلبية في المجتمع العراقي، مثل بروز نزعة الاستقطاب، التي قسَّمتْ المجتمع العراقي بعد أيام قليلة من قيام انقلاب/ ثورة 1958 إلى معسكرين متناحرين: يسار يمثله عبد الكريم قاسم والشيوعيون، ويمين يمثله عبد السلام عارف والبعثيون. فضلاً عن شيوع ظاهرة عسكرة المجتمع، والنزعة الانتهازية، وتنامي الروح السلبية.

8 – أسهم تدخل العسكر في الشأن السياسي عبر سلسة طويلة من الانقلابات- كما حصل في الأعوام "1936، و1941، و1958، و1963، و1968" – بزعزعة استقرار الدولة العراقية، وفرض قيوداً على الحريات العامة، فانكفأ المجتمع على نفسه تدريجياً، وتقوَّض التوازن الذي كانت تستند إليه مكوناته، ضمن إطار الهوية الوطنية. مما يستدعي اعتماد أساليب إدارة واقعية للدولة، وبدائل للتعايش، مع تطوير استراتيجيات تحمي التماسك الاجتماعي من خطر دكتاتورية الحزب الواحد، والحاكم الأوحد.

9 – رصد سليم الوردي نزعات الأحزاب الأيديولوجية لفرض السيطرة على مفاصل الدولة، عبر تنظيمات مُسلَّحَة، كالمقاومة الشعبية في مثال الحزب الشيوعي، أو الحرس القومي التابع لحزب البعث، وهو ما يتناقض مع معنى الدولة، بوصفها الكيان المؤسَّساتي الوحيد الذي يَحُقُّ له احتكار العنف، في إطار دستوري، لضمان أمن المجتمع بجميع مكوناته، بصرف النظر عن آرائهم السياسية. فضلاً عن تَمَدُّد الحزبين في الدوائر الحكومية الرسمية بهدف السيطرة عليها، عبر أفراد موالين، كما في مثال شخصية أمين رجل الأمن البعثي، واستبعاد الموظفين ذوي الكفاءة، مثل ما حصل للأستاذ أدهم، والآنسة مادلين.

10 – حرص سليم الوردي وهو يكتب عن موضوع إشكالي ذي طبيعة استقطابية على تقديم قراءة محايدة، وموضوعية لتاريخ الدولة، وللمجتمع بمكوناته المتنوعة، حتى أنَّه فضَّل أنْ يشير إلى الحزب الشيوعي، وحزب البعث باسمي الإشارة: "هؤلاء، وأولئك" لخلق مسافة إيحائية كافية، تفصل قراءته لتاريخ العراق عن شوائب التعصب الإيديولوجي.

11 – مارست العنف السياسي بدرجات متفاوتة، جهات حكومية، ومنظمات حزبية، وأفراد في جميع أدوار الدولة العراقية، وأخذتْ وتيرته بالتزايد في ظل الحكومات العسكرية المتعاقبة في العهد الجمهوري، حتى أصبح وسيلة لفرض الهيمنة، وكسر إرادة المعارضين، ولو بالهجوم المسلح على أحياء كاملة، وهو ما تعرَّضتْ له مدينة الكاظمية، وعكد الكرد بعد انقلاب العام 1963، فضلاً عن العنف الموجَّه ضد مجموعة بذاتها من السكان المدنيين، مثلما حدث مثلاً، مع شخصية "العم قلي"، في إشارة إلى تهجير سلطة البعث للكرد الفيليَّة إلى إيران.

12 – أَكَّدتْ الرواية على ضرورة فهم الاحتياجات النفسية المختلفة المرتبطة بمن ينخرطون في أشكال متطرفة من العنف السياسي، وكيفية استغلال الأحزاب الإيديولوجية لهذه الاحتياجات عند شريحة الشباب، كما في مثال شخصية سيروان، وتماهيه مع شخصية جورج الشيوعي، ودفع شخصية إبراهيم للإنظام إلى تنظيم المقاومة الشعبية.

13 – للعنف السياسي الذي مارسه العسكر والأحزاب جذور في المجتمع العراقي. وقد حمَّل سليم الوردي أساليب التربية الأسرية غير الناجعة، والنظام التعليمي قسطاً كبيراً من مسؤولية إشاعة ثقافة العنف. فلم تظهر صورة المَدرَسة في الرواية بوصفها مؤسَّسة تربوية تزود الطلبة المتعلمين بمهارات علمية، وثقافية أساسية تنمي وعيهم النقدي، وتؤهلهم ليصبحوا فاعلين إيجابيين، بل كانت تجلياً ثقافياً لقيم سلطة أبوية قامعة، أصابت كُلَّاً من إبراهيم، والفتاة خديجة بشروخ نفسية مؤلمة، أفضتْ بهما لنهايات مؤسفة.

14 – أشَّر سليم الوردي بأسلوب رمزي مثَّلته النهاية المأسوية بمقتل إبراهيم نهاية مشروع الدولة من المنظور الوظيفي، تحت حكم البعث الثاني، في مُحَصِّلة طبيعية لسلسلة انقلابات، وصراعات إيديولوجية لم تكن تهدف لتصحيح المسار القديم، بل لهدمه، وإقامة سلطة دكتاتورية مطلقة. وما عادت مؤسَّسات الدولة قادرة على أداء وظائف حيوية للمجتمع، كالحفاظ على النظام، وتطبيق القوانين،

وضمان التعايش الآمن في ظل استقرار نسبي. وهو ما يمكن عدُّه قراءة استشرافية لمستقبل الواقع العراقي عَشيَّة الاحتلال الأمريكي في العام 2003.

الحواشي

(1) كل كلمة موضوعة بين قوسين، ضمن النصوص المقتبسة هي من وضع مؤلفي تلك النصوص,

(2) كذا. والصواب: واحداً.

(3) كذا. والصواب: ذكاؤها.

المصادر:

1- أرندت، حنة. (2008). *في الثورة*، الطبعة الأولى. ترجمة: عطا عبد الوهاب، بيروت - لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
2- إيغلتن، تيري. (2018). *الثقافة*، الطبعة الأولى. ترجمة: لطفية الدليمي، بغداد: دار المدى.
3- بارت، رولان، وآخرون. (1992). *طرائق تحليل السرد الأدبي، الطبعة الأولى*. ترجمة: مجموعة مترجمين، الرباط: منشورات اتحاد كتاب المغرب.
4- باقر، طه. (1971). *ملحمة كلكامش*، الطبعة الثانية. بغداد: وزارة الإعلام - مديرية الثقافة العامة، سلسلة الثقافة الجديدة.
5- بطاطو، حنا. (1995). *العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، الكتاب الأول*، الطبعة الأولى. ترجمة: عفيف الرزاز، بيروت - لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية.
6- بطاطو، حنا. (1999). *العراق: الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار، الكتاب الثالث*، الطبعة الثانية. ترجمة: عفيف الرزَّاز، بيروت - لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية.
7- بورديو، بيار. (2016). *عن الدولة: دروس في الكولج دو فرانس (1989 - 1992)*، الطبعة الأولى. ترجمة: نصير مروة، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
8 - بورديو، بيير. (1994). *العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي*، الطبعة الأولى. ترجمة: نظير جاهل، بيروت - لبنان: المركز الثقافي العربي.
9- حديد، محمد. (2006). *مذكراتي: الصراع من أجل الديموقراطية في العراق، تحقيق: نجدة فتحي صفوة*، الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: دار الساقي.
10- حرب، أسامة الغزالي. (1987). *الأحزاب السياسية في العالم العربي*، الطبعة الأولى. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 117.
11- الحيدري، إبراهيم. (1999). *تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي*، الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: دار الساقي.
12- الخطاب، رجاء حسني. (1979). *تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره السياسي من 1921 - 1941*، الطبعة الأولى. بغداد: دار الحرية للطباعة.
13- دان، أوريل. (2012). *العراق في عهد قاسم*، الطبعة الأولى. ترجمة: جرجيس فتح الله، بيروت - لبنان: دار الجمل.
14- سباهي، عزيز. (2002). *عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، الجزء الأول*، الطبعة الأولى. دمشق: منشورات الثقافة الجديدة.
15- سكوت، جيمس، . (1995). *المقاومة بالحيلة: كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم*، الطبعة الأولى. ترجمة: إبراهيم العريس، ومخايل خوري، بيروت - لبنان: دار الساقي.

16- عبدالجبار، فالح. (2010). *العمامة والأفندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني*، الطبعة الأولى. ترجمة: أمجد حسين، بيروت - لبنان: دار الجمل.
17- العروي، عبد الله. (2014). *مفهوم الدولة*، الطبعة العاشرة. الدار البيضاء - المغرب: المركز الثقافي العربي.
18- غِدِنزْ، أنتوني. (2005). *علم الاجتماع*، الطبعة الرابعة. ترجمة: د. فايز الصُيَّاغ، بيروت - لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
19- لوكاش، جورج. (1986). *الرواية التاريخية*، الطبعة الثانية. ترجمة: د. صالح جواد الطعمة، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
20- لونكريك، ستيفن همسلي. (1985). *أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث*، الطبعة السادسة. ترجمة: عفيف الرزاز، بغداد: مكتبة اليقظة العربية.
21- مندلاو، أ. أ. (1997). *الزمن والرواية*، الطبعة الأولى. ترجمة: بكر عباس، بيروت - لبنان: دار صادر.
22- ميكشيللي، اليكس. (1993). *الهوية*، الطبعة الأولى. ترجمة: د. علي وطفة، دمشق: دار النشر الفرنسية.
23- وايت، هايدن. (2017). *محتوى الشكل: الخطاب السردي والتمثيل التاريخي*، الطبعة الأولى. ترجمة: د. نايف الياسين، بيروت - لبنان: هيئة البحرين للثقافة والآثار.
24- الوردي، زيد سليم. (بلا, بلا). ملف ورقي "السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور سليم علي الوردي". بلا.
25- الوردي، سليم علي. (2014). *سيرة إبراهيم*، الطبعة الأولى. بغداد: دار الجواهري.
26- ورنوك، ميري. (2007). *الذاكرة في الفلسفة والأدب*، الطبعة الأولى. ترجمة: فلاح رحيم، بنغازي - ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة.
27- يفوت، سالم. (1981). *الزمان التاريخي: من التاريخ الكُلِّي إلى التواريخ الفعلية*، الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.